القلم الاجير

✯

في هذه الساعات المثقلة التي يجتازها – بالسلامة – هذا البلد المؤمن بحقه في الحياة ايمانك بالله ، يقف بعض حملة الاقلام في مفارق الطرق يعرضون للأكرياء الكثيرين، ضمائرهم، وضمائرهن، عرض المبيع ، وينشرون افكارهم وافكارهن نشر الموت ، ويسألون عن مواقع الجباه – لقد اشتاقوا الذل يوم النصر – سؤلاً بغيضاً الى الاحرار ، مستحباً الى النفوس الهزيلة . . . فليقف المتبري. امامنا ، اذا شجع ، يرد الحديث ، لنعين له الكروة ، ولنسمي بوضوح ، المستكري ، ومتجر الكراء . . .

لقد آجروا اقلامهم –نقولها للتاريخ– ولم يكن لهم من دوافع النفس والفكر والتربية، والدين ايضاً، دافع واحد يردهم الى الصواب ، ويفتح بصيرتهم على ضوء حقنا المشرق ، في ماضينا العظيم، وفي غدنا المترامي الى الف امنية والف غناء.

ونحن العرب اعرف الناس بأمور الاحابيش والموالي ، فقد عجّ بهم تاريخنا الجبار عجيجاً بعيداً ، ولكنهم ، لم يمنعونا خطوة من زرع الارض بالفكر والمحبة عشرات الاجيال ، وسنزرعها باذن الله مرة ثانية ، وسنعلمها باذن الله كيف تعبد الحق.

ومتى آمنت الارض بنا ، بتاريخنا ، بمثلنا ، بربنا ، رفعت جبهتها العريضة عن الحديد والذهب والاوثان ، لتتلمس بها قمة الجوزاء .

فالارض لم تنزل عن مطالع الفجر ومشارف الربيع الا يوم شدّت الايدي ، لتغرق الجزيرة في الظلمة ، ولتمحو اسمها من مخيلة السامرين . وأي ارض تدور على غير محور ، ونحن في جزيرتنا العظيمة محور الارض .

أما هؤلاء الذين آجروا مستقبلهم بلقمة ، . . . واية لقمة . . . فهم كالنقع السميك المتطاير حوالي المحور الدائر لن يوقفوا الحركة المتدفقة ولكنهم يحاولون ، تقريه الالوان ، وحطّ الزمن .

فلمَ لا تنفضهم الايدي المسؤولة نفض الغبار عن السجادة الثمينة ؟؟

وأي رجل يتزل داراً جديدة ولا يفك حبال الحقائب ، ولا يرفع طبقات الغبار ؟؟

أما قوتهم التي تشكو الساعة فهي في كراسيهم المربوطة باقلامهم والسنتهم ، وعفو الاولياء بشيء من الضعف لا من القوة ، والعفو في الضعف استسلام . فلنسكت اقلامهم لكي تراهم كيف يتمغطون ويتأبطون ، ويتمطون ، وكيف ، كيف ، يتبسطون على العتبات في طلب اللقمة ، ربهم المفدى .

أما حرية القول فهي اكذوبة من اكاذيبهم العديدة . . .

ومن تراه يترك لساناً يأكل عرضه ؟؟

وانا مع ايماننا ، حتى الساعة ، بالحفراء نرى الطريق الى الفجر مزروعة بالعقبات ، والمتربصين . وفي طليعتهم حملة الاقلام الاجيرة ، الذين يشربون من بئرنا ويأكلون من خبزنا ولم نحسن مراقبتهم . فأدلوا على الناس ومرحوا وسرحوا على ساحل هذا الجبل العربي ، في معاهده ، ومكاتبه ، في صحفه ودوره ، في انديائه ومعابده ، يبيعون كرامته بيعاً ويسقون الندامى – وما اكثرهم – من خمره الكثير المباح .

فأنت ايها القاري العربي المقيم في اطاريف الجزيرة الواسعة ، وفي غير الجزيرة ، من بلادنا ، اقرأنا ، نحن في هذه المجلة العربية ترَ وجه لبنان الحقيقي ، وتتعرف الى روحه الصادقة ، فليس عندنا اقلام اجيرة ، والحمد لله .

لا اقول هذا بغية في دعاوة ولا رغبة في تملق – اشهد الله – هل بيني وبينك مساومة ، وانا وانت واحد منذ تحرك هذا القلم على هذا الحرف ، ولن نكون الا عربياً يعيش في ارض واحدة عربية ويحمل ايمانه العظيم ليبني مجداً واحداً عربياً يعلم فيه الناس الخير والمحبة .

الياس خليل زخريا

الجيـــل العربي الجديـــد

بقلم ميشيل عفلق

في حالة رقي الامة وقوتها تخف مسؤولية الفرد ، اذ يكون قادراً على نفعها ، عاجزاً عن الاضرار بها . ولا يكون ثمة تناقض او اختلاف كبير بين نفعه لها وانتفاعه منها ، بل تنسجم المنفعتان في اكثر الاحيان ؛ وبتحقيق الفرد شخصيته تتحقق شخصية امته ، وبقيامه بعمله الخاص يخدم الحياة العامة . وعندما يساهم في اوقات معينة ومناسبات محدودة في العمل العـــام ، يعرف ان مساهمته اذ تضاف الى مساهمة الآخرين تؤدي بصورة اكيدة الى النتيجة العامة المطلوبة او ما يقاربها .

ذلك ان الامة في هذه الحالة تسيطر على مصيرها وظروفها الى حد كبير . فحياتها ايجابية سلسة دافقة وهي تصعد وكأنها من قوة اندفاعها في نزول . والفرد محمول على تيارها في هذا الصعود، يخدمها بلا عناء ولا تكلف .

اما في حالة التأخر والضعف، فتتضخم مسؤولية الفرد، اذ يرى كل حركة من حركاته قادرة على الاضرار بأمته ، في حين تصبح خدمته لها شاقة او متعذرة . فاهتمامه بحياته الخاصة ونفعه الخاص لا يكون اهمالاً للخدمة العامة فحسب، بل في اكثر الاحيان موجهاً ضدها . ولا يعود الفرد خلية في جسم الامة اذا تغذى غذاهـــا في الوقت نفسه ، بل خصماً لهذا الجسم لا يقوى الا من ضعفه ، ولا يسمن الا من جوعه . واذا اراد ان يدخل الحياة العامة ، رأى بعد حين انه ، بالرغم من رغبته الخالصة في الخدمة ، منقاد بمنطق قاهر خفي لان يسخّرها لنفسه ومصلحته ، ويعيش منها وعليها ، بعد ان كان ينوي تسخير نفسه وعيشه لنفعها ولخدمتهـــا ؛ ويتضح له ان مساهمته في العمل العام بغية ايصاله الى هدف مشترك واحد للامة ، ان تؤدي ، عندمـــا تضاف الى مساهمة الآخرين ، الا الى وصول بعض الافراد الى اهداف خاصة مختلفة ، اي الى ابعـــاد الامة عن هدفها المطلوب .

ذلك ان الامة في هذه الحالة مسيرة منفعلة، خاضعة لسلسلة من العوامل والظروف البعيدة والقريبة ، الداخلية والخارجية . فبين ظروف الامة ومصلحتها، بين قدرتها وارادتها ، تضارب وتناقض . أي ان عملها عكس نفعها ، وواقعها نقيض حقيقتها ، وانها تقدر على ما لا تريد ، وتريد ما لا تقدر عليه . فحياتها سلبية وتيارها غائر ، اذا تصدى له الفرد شد اليه وغار معه .

في مثل هذه الحالة لا يجدي علم بعض الافراد وكفاءتهم ، واخلاص بعضهم الآخر ونزاهته ، وغيرة الغيورين وتضحيات المضحين . لان الآلة الكبرى قادرة ان تتحمل مثل هذا الشذوذ لتتمثله وتهضمه ، وتطبعه بحركتها وتحوله الى غذاء لها بعد حين ؛ كما يقدر المجتمع الراقي السليم على تحمل بعض الفاسدين، وحتى على الافادة من فسادهم .

وكل علم يبقى ضمن اطار هذه الالة هو ناقص ، وكل اخلاص مشوب، وكل نزاهة مشتبهة . ولو كان العلم صحيحاً لفك صاحبه من اسارها ، واخرجه من سجنها ، ووصفه في موضع حر مجرد يشرف منه عليها ليحيطهـــا بنظرته ، ويفهم سر تركيبها ، ليعرف كيف يخربها ، ولو كان الاخلاص تاماً لدفع صاحبه الى الانفصال عنهـــا والتمرد عليها بدلاً من تدعيم قوة الفاسدين ، ولو كانت النزاهة حقيقية لحرص صاحبها على نظافة امته اكثر من حرصه على نظافة سمعته .

ان حالة كهذه تجرف وتشل وتقنط العدد الاكبر . ولكنها قد تخلق افراداً قلائل وحيدين ، يصمدون ويعاكسون سيلهـــا . فعندما يتخلى العدد الاكبر كلٌ عن مسؤوليته، يظهر ، هنا وهناك، الفرد الذي يتحمل كل المسؤولية ، أي مسؤولية الكل . وهذه خطوة اولى ضرورية ومربية لاولئك الافراد ، يجب ان يعقبهـــا تعارفهم وتوحيد جهودهم ، حتى يكوّنوا القوة التي تحدث في نفوس الاخرين الثقة والاطمئنان الى ان كل جهد ينصب في هذه القوة مثمر ، وانها القوة الوحيدة التي تثمر فيها الجهود .

فالعمل ليس عادياً آنياً ، بل تاريخياً ، وليس سياسة بل رسالة، لانه مكلف بتصحيح انحراف عصور عديدة ماضية ، وتهيئة

انبعاث للامة يؤتي أكله في عصور عديدة مقبلة. وليس ينجع فيه جهد افرادي، واسلوب سطحي، واعداد مرتجل. فلا بد اذن من جيل بكامله، مهيأ لان يبدع في النضال حتى يستمر فيه الى نهايته.

*

اننا اذ نذكر الجيل العربي الجديد نعني به جيلاً لم يتحقق بعد، وان تكن له في واقعنـا ممكنات. ومن العبث ان ننتظر ظهور هذا الجيل اذا لم تظهر فكرته. فالصفة المميزة له انه فكرة كله، وان عمله اشعاع لفكرته، فاذا لم تكن، لم يكن ثمة عمل. في حين ان الجيل القديم عمل يترسب منه ما يشبه الفكرة، فهي من بقايا العمل وكدره وتفسخه، كعذر وتغرير، لذلك هي أسوأ ما فيه، وهي دوماً دونه. ليس العمل اشعاعاً لهـا، بل هي تقطير لظلمته.

ولا يُفهم من الجيل الجديد انه جيل الشباب. اذ ليس الشباب فكرة بل شرطاً مناسباً لنموها. وقد يكون من الشباب من هم أشد من الشيوخ عداوة ومناقضة للجيل الجديد. لذلك لن تتحقق الفكرة العربية الجديدة الا في نوع معين من الشباب. واهمال هذا الفرق ادّى الى فشل كل محاولات البعث التي قامت منذ سنين وما تزال، لانها اكتفت من الشباب برابطة السن، وبرابطة اخرى لا تقل عنها خداعاً: الثقافة الاصطلاحية. فالجيل الجديد يشترط ايضاً وجود فهم معين للثقافة، ونوع معين من المثقفين.

ان الوهم الذي ينسب الى السن الشابة قوة خارقة في حد ذاتها، هو نفسه الذي ينتظر انتهاء عمر الجيل القديم وموت آخر ممثل له. في حين ان هذا الجيل ليس مجرد اجسام مسنة، بل هو روح وتقاليد قادرة ان تتجسد في الاجيال الشابة الى ما شاء الله. فكما ان الجيل الجديد لا يوجد الا متى وجدت فكرته، كذلك الجيل القديم لايموت ما لم تمت روحه وتقاليده، او بالاحرى ما لم تقتل، بظهور الروح التي تنفيها. وهذا يعني ان كل اصلاح لا يتناول الفكرة الاساسية لحياة الامة هو سطحي فاشل، وبالتالي ضار. وكل معـالجة تهمل الجذر لتتلهى بالفروع هي اضاعة للوقت. ومن هذا القبيل اهتمامنا الذهني « بالاخلاق »، وفشلنا العملي فيها. فنحن نحسبها سبباً وهي نتيجة. وما الفضائل المتعددة، والمتنافرة احيانا، التي نطيل ذكرها كلما كتبنا او خطبنا، الا نتيجة طبيعية لموقف حيوي يجب ان يهيئه الفكر. وان هذه النظرة المعكوسة لتظهر في فهمنا لماضينا المجيد وحياة ابطالنا. فنحن ننظر الى اولئك الابطال من خلال ضعفنا وانحطاطنا، لذلك نحملهم احمالا من الفضائل لا يتناسب ثقلها مع ما كان لحياتهم من عفوية وطلاقة وتدفق، ولا يتفق تعددها مع ما كان لشخصيتهم من وحدة رائعة.

اذن فنحن لا نطلب جيلاً مؤمناً مخلصاً، جريئاً صبوراً، ضحياً فعالا؛ بل نطلب جيلاً جديداً. اي ان يكون له موقف حيوي جديد يستتبع هو نفسه الفضائل التي يتضمنها ويحتاج اليها.

ان هذا الموقف لن يكون الا موقفاً فكريا يمكن تحديده هكذا: ١ — لا نهضة الا من الداخل، من داخل الانحطاط، تنبعث منه لتنفيه، وتستكشف اتجاهه اتعاكسه. والجيل الجديد سيخرج من الواقع الفاسد، ولكنه سيكون نقيضه. سيولد منه وينفصل عنه. هو نتيجة للالم، ولا يشعر بالم الفساد الا من عاش فيه (لا منه).

٢ — ولكن الفساد لا يؤلم دوماً، ولا يؤلم ايا كان. فالالم قد يُخلق ويوضح ويرهف ويُجسم، ويملأ بالمعنى، ويعطى اتجاهاً. فلا بد من الم شديد، فيه معنى وله اتجاه.

٣ — ان معنى الألم والاتجاه متوقفان على نوع الاحكام التي يصدرها الجيل الجديد. وحياة هذا الجيل متوقفة على حكمه، لذلك وجب ان يكون حكمه حياً.

من صفات الجيل المنحط انه يحكم على الحاضر حكم مؤرخ، اي انه مفسر لا مؤثر، يحول الاسباب الى اعذار، وقد يحول الاعذار الى مبادىء فلسفية وقواعـد اخلاقية. ليس من ضرر في ان يكون حكمنا اليوم على الجاهلية حكماً تفسيرياً، فنستكشف فيها فضائل ونجد لعيوبها اعذاراً، ولكن الاسلام حكم عليها حكماً حياً، وهكذا ادى مهمته. فالذين يحكمون على الجيل القديم هذا الحكم التفسيري هم منه وان كانوا شباناً يافعين نضرين. لا بل هم دونه؛ لان القصور الذي اضطر اليه الجيل القديم اضطراراً سيتعمده جيل الشباب تعمـداً. وبما ان التحقيق هو دون المثال دوماً، فالجيل الذي يتخذ من النتائج التي وصل اليها الجيل السابق مثلاً وغايات سيكون حتما دونه في الخلق والعمل معاً.

فالغيرة على الجيل الجديد، اي على المستقبل، تفرض اسلوباً معيناً في وضع المسائل وعرضها ومعالجتها. لان ثمة فرقاً كبيراً بين وضع المسألة بشكل يوصل الى ايجاد اعذار ومسوغات، او فضائل

(التتمة في الصفحة ٦٣)

عمـــــر ابن ابي ربيعـــــة

بقلم مارون عبود

مدير الجامعة الوطنية بعاليه

★

كان عبد الملك بن مروان ابصر اهل عصره بوجوه الكلام، وادرى جيله بالشعر الجيد، وابلغهم كلمة واملحهم نكتة ممضة. واذا كان الناس على دين ملوكهم فعصر عبد الملك عصر نهضة استقل فيها الهجاء والغزل وكانت الخطابة وبلغ الشعر الخمري الاوج. فابو نواس صهر صور الاخطل والاعشى والوليد وغيرهم ممن تقدموه في بوتقة فنه فخرجت ابهج واملح وانبثقت له خمرية طريفة اعانه على اخراجها تحريم الخمرة وظرفه وخفة روحه ولسانه، وسهولة بيانه.

فاذا راعينا مدنية العرب والفرنسيس كان شعراء عصر عبد الملك كشعراء عصر الملك الشمس. فالمدح والغزل والهجاء اجتمع اشدهم في عصر ابن مروان عصر نهضة الشعر الرصين والكلام العربي المبين. فالغزلان الاباحي والعذري استقلا في هذا العصر حتى اذا ما انقضى امسى الغزل كالمقبلات التي تتقدم المآدب. فعمر وجميل هما شاعرا الغزل اما بقية الشعراء فبدد. واحسبك توافقني على كنية جديدة نطلقها على ابن ابي ربيعة. لقد وسخ عمر كنية ابي الخطاب في تلك الغارات التي شنها على الحريم، فابو جوان تليق به اكثر تيمناً بدون جوان الاوربي. ان دونجوان شخص اسطوري اما ابو جوان فكنية حقيقية، لان جوان بن عمر كان رجلاً صالحاً كما روى الاصبهاني. فليهنيء العرب دونجوانهم وماذا ينقصنا بعد.

قال الجاحظ في حجج النبوة: والناس اشبه بازمانهم منهم بآبائهم. والحجاز كانت في زمن عمر مترفة. ثروة يضخمها الفيء الذي ينصب فيها انصباب وفود الماء في بركة المتوكل... وماذا يعمل شاب قرشي سد عليه الامويون وعلى اضرابه مطلع السياسة واغرقوهم في الاعطيات لئلا يتطاولوا الى الخلافة. احس عمر انه شاعر وهبت في صدره الاهواء فغنى لها فحملته على اجنحتها الى عبقر. قد يكون ركب رأسه بعد موت ابيه ففتنته مجالس الغناء والشراب والجواري والقيان والمواسم التي تتجدد كل عام عندهم. فمكة مشتى الاكابر ومصيفهم الطائف وعمر منهم. يسيل العقيق فتسيل معه عواطفهم. ناهيك بالقصور والجنات التي قامت على آثار الطلول كما انبأنا عمر بقوله:

هيج القلب مغان وصير	دارسات قد علاهن الشجر

وكما قال جرير يخاطب هشام بن عبد الملك:

بها الزيتون في غلل ومالت	عناقيد الكروم فهن سود
يصون الانابل ان راوها	بساتينا يؤازرها الحصيد

في مثل هذا المحيط الفتان نشأ ابو جوان. لست احدثك عنه وعن عصره ومحيطه وحياته فقد كفانا ذلك الاستاذ الكبير جبرائيل جبور، فان شئت ان تختص فدونك ذلك الكتاب النفيس الذي الفه. انه كتاب جامع رصين فيه اناقة عمر في شبابه وترتيب هندامه في زمانه. فشاعرنا ابو جوان كبير الحظ حياوميتا وحسبه ان يكتب عنه هذا الكتاب الفريد.

كان عمر غنيا جداً فاستغنى عن الخلفاء ومدح النساء. ولم يجد له نداً بين شعراء عصره فيهاجيه فاختص بالغزل، وهل في الدنيا اختصاص اجمل من ان يوكل رجل بالجمال فيتبعه اين وجده؟ لم ينبغ عمر في الشعر منذ طلع ولكنه مرّ في ثلاثة اطوار تتمثل في اقوال زملائه المعاصرين. قرزم عمر فقال جرير اذ سمع قوله: شعر حجازي لو اتخذ في تموز لوجد البرد فيه. ولما دانت له القوافي قال فيه: ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر. ولما شق

طريقه الى خدور النساء ووصف حديثهن قال الفرزدق: هذا الذي اراده الشعراء فاخطأوه وبكوا على الطلول .

ظل عمر ينحت ويعمل ، استوحى عاطفته ومحيطه ، وانقاد للهوى فلم يخرج من تلك الدائرة . ومن يستطيع الخروج من دائرة الهوى فهو عند علماء النفس حصر الحياة السيكولوجية في نطاق واحد واتجاه القوى الفاعلة نحو النهاية المشتهاة وتكييف كل وجودنا كما يقتضي ميلنا ، وهذا ما وجه عمر في فنه هذا التوجيه . وقف عمر على الاطلال كما وقف المتقدمون فقال وقصر عنهم :

أم تسأل الاطلال فالمتربعا ... ببطن حليات دوارس بلقعا

وليس هو اول من وصف لنا حالته عند الحبيبة وما اتى من ضروب الشهامة ... فقد سبقه الى ذلك امرؤ القيس . ويكاد يقع الحافر على الحافر اذ دخل هذا دار نعم وذاك خدر عنيزة ، ويتشابهان ايضاً في قصيدة ذات البعل الذي يغط غطيط البكر شد خناقه ... ويتفق ايضاً مع الفرزدق والتين دلتاه من ثمانين قامة ... ولكنه كان اقرب الى الواقع لانه اترف واخنث واشب منهما . وفي الغزل الذي جاءه من اليمن — كما قالوا — لم يفق عمر سواه ولم يبتدع شيئاً . فاين ابداعه اذن .

ان ابداع ابي جوان في (ليت هنداً) وفي (هيج القلب) وقصائد اخرى من طرازها ولكنها دونها روعة وفناً . جعل عمر نفسه المحبوب وروى لنا احاديثهن في خلواتهن فاذا بهن مثلنا من لحم ودم ، وهذا الذي سبق فيه عمر . كان شعره متصلاً بنفسه كل الاتصال بل هو صورة حياته اليومية ، اخرجها قلم اوتي براعة القصص ففتن الناس . لم يتكلم ابو جوان بلغة امرىء القيس وتلاميذه بل باللغة التي تفهمها المراة كل الفهم ، وكان شعره غير مهتاج ولا مضطرم ولا متالم لانه محظوظ يشكو اليسر لا العسر . فتح قلبه نصف فتحة . لا يترك شعره الغزلي اثراً عميقاً في انفسنا لانه لم يتألم ولم يحرم . لا يعبر عن خوالج النفس الا الكبت وعمر متنقل من زهرة الى زهرة كالفراشة فهو كما يقول المثل عندنا (شآمهوا قطاف ورد) . مهنته الحب والاتها الشعر والمال والفراغ وكلها متيسرة له : خيول مطهمة وخدم وحشم وعبيد وجواري ، واصدقاء يعاونونه جميعهم على حاجاته ، يبثهم هنا وهنالك ككلاب الصيد ، وهل يصيد الظباء غير الكلاب كما قال ابن الرومي ...

كان يجب ان يكون لعمر مكتب استخبارات وسفارة لا تنقضي شؤونها وشجونها . فهو دائما يتصل بهذه وتلك وهاتيك، ورسل تروح وتجيء . جناد وزير دفاع ، وعتيق ذو الوزارتين: الخارجية والداخلية . وعبدالله بن جعفر وزير مواصلات ، وابن سريج والغريض وزيرا الدعوة والنشر . جوار سود وبيض تقضي حاجات رجل لم تشغل باله السياسة فهام دولة الحب تكفيه . اللهم غفرانك .

تستلذ شعر عمر كحكاية حال لا كعاطفة حادة تشاركه فيها ، ففي أشد تحرقه أحس ذلك البرد الذي عناه جرير . ليس هناك حب صحيح ، انما هنالك تمثيل فصول ملذات وشهوات بطلهـا ابو جوان — كلاه يحفظ ربه المتكبر — فابو جوان في قصصه ممثل اكثر منه شاعراً محباً محبوباً . لا يغلي ولا يثور بل يمثل مشاهده على حقها وهي تكاد تكون واحدة . يتلهى بالمرأة تلهي الطفلة بدميتهـا ، ويقول في ذلك شعراً فيجيء قصة صغيرة سهلة ذات اهتزازات اشبه بالتي تحدثها قصة غرامية ، او احدى حكايات الف ليلة وليلة ، ليس هذا لان نفس عمر في ذلك الشعر بل لانه يمثل لك مشهدا يوقظ فيك نارا كامنة .

ليس في ذاك الديوان ابتسامة ولا ما يبتسم له المرء بل هناك وصف حالات نفسانية سطحية . كلام بسيط سهل تفهمه النساء ، ويتمنين ان يقال مثله فيهن . لا الوان ولا صور الا تلك الاحوال التي تحدث ويأتي الشاعر على وصفها وهي هي دائما . شعر مرسل عفو الخاطر وهو — احياناً — لولا القافية يشبه الرسائل المنثورة . لا يتورع من ان يفتتحها باسم الاله ويضمنها معاني من قوله تعالى ومن حديث رسوله ويحولها عن القصد . نفس قصير وعمل فيه بعض العناية ، لا ينظر الا لما يقول ولا يهمه كيف اداه . يعمل ويصف ما عمل ولا حاجة الى كد الخيال واعمال الروية . لم يمر عمر في ازمة لترى ما يخرج من راسه ، فلم يقل الا اشياء سطحية يعرفها اقل الناس اختبارا ، ولكنه اجاد وصف هذه المظاهر اجادة فنية كاملة ، فاذا امكننا تقسيم علم النفس الى داخلي وخارجي كان شاعرنا من وصافي الخارج ادق وصف بذاك الحوار الذي لا يفوته منه شيء . وكأني به يصغي باذني فرس لينقل الحديث كما هو ، ويمعن النظر ليصور الحركات الخارجية :

فقالت وعضت بالبنان ، فضحتني ... وانت امرؤ ميسور امرك اعسر

ليس في قصصه عمل فني ولكن شخوصها حية تتحرك . والحوار لا غبار عليه ، اذ ليس هناك لفظة يستحى منها كما سترى في المقال القادم .

عاليه ... مارون عبود

انتاجنا القصصي

لا ريب ان الانتاج الادبي خلال السنين الاخيرة – في عالم القصة والمسرح السينما – موفور حافل، وهو يساير التقدم الاجتماعي للامة. وعلى الرغم من فترة الحرب – بما جرّت من عوائق – ظل الإنتاج الادبي في ميادين الطباعة والمسرح والسينما محتفظاً بنشاطه بقدر الامكان. والطابع العام لهذا الانتاج جدير بالرضا والترحيب في الميادين الثلاثة. بيد انه في الطباعة – اعني الروايات المطبوعة ، مسرحية كانت أو قصصية – اكثر تصويراً للنهوض الفني من الانتاج في المسرح والستارة الفضية. ففي الرواية المسرحية أو القصصية التي تطبع للقراءة تلمح عناصر الابتكار والاجادة والتعبير عن شخصية مؤلفها ، وان كان بعضها لا يخلو من هنات تستوجب الملاحظة . أما في المسرح والسينما فاننا نلمس في معظم الروايات روح الاقتباس أو الترجمة ، ونحس ببعد هذه الروايات عن تمثيل شخصيتنا المتميزة. ولسنا نغمط حق بعض الجهود الموفقة التي بذلها طائفة من القصصيين ، ولكننا هنا نجمل القول على وجه عام.

فأما فيما يتعلق بأوجه النقص في القصص التي نقرأها مطبوعة في الكتب أو منشورة في الصحف ، فاني ألاحظ أن بعض هذه القصص لا تستكمل حظها الفني ، وذلك لان كتابها يغفلون عناصر ساسية لها خطرها في تكوين القصة. وفي مقدمة العناصر التي أشير إليها ما يأتي :

أولا : الجنوح الى التلخيص في المواقف ، وترك التبسط في التحليل. ففي بعض الاحيان نقرأ موضوعاً يصلح أن يؤلف قصة طويلة ، على حين اننا نجده مدمجاً في أقصوصة ، فيبدو مقتضباً ، شاحب الشخصيات ، غير مستوفي الجوانب .

ثانياً : خلو القصة من الطابع الانساني . ولست اقصد بانسانية القصة أن يكون فيها عنصر الرأفة والحنان ، بل أقصد البشرية في غرائزها الثابتة ، ونوازعها الكامنة. فنحن نجد المؤلف يقحم نفسه بين شخصيات قصصه ، ويفرض عليها اهدافاً ومثلاً لا تتفق مع الدوافع النفسية الحقيقية التي تقتضيها ملابسات الحياة . وبذلك تبدو هذه الشخصيات كأنها دمى مصنوعة لا تمت بصلة الى النماذج البشرية الحية .

ثالثاً : يحسب بعض كتاب القصة انه يستطيع ان يتخذ من قصته منبراً للوعظ الخلقي والارشاد الاجتماعي ، وذلك من طريق مباشر. وكلما كان الكاتب احرص على تحقيق هذا الغرض كان ابعد عن الفوز في مضمار القصة الفنية . والطريقة المثلى في ذلك ألا يفرض المؤلف على نفسه هذا المنحى ، وألا يقصد قصداً الى القاء الدروس . ولنضرب ببؤس الفلاح مثلاً : فان القصصي اذا جلس الى مكتبه ليؤلف عمداً قصة موضوعها الدعوة الى نصرة الفلاح ، وتوجيه الانظار اليه ، خرجت القصة عملاً متكلفاً غير فني ، ولكن الكاتب اذا اتيح له ان يعاشر الفلاح وان يحس حالته ، فاندفع بوحي من شعوره غير الواعي الى التعبير عما رأى وما شهد ، خرجت قصته عملاً فنياً صادق الوحي لا تكلف فيه ولا تعمل ، وأدت من تلقاء نفسها واجب الارشاد الاجتماعي الى الاخذ بناصر الفلاح . . .

واما فيما يتعلق بأوجه النقص بالقصص التي تمثل على المسرح او تشاهد في السينما ، فقد قلت في مستهل هذه الكلمة : ان المسرحيات الممثلة والقصص السينمائية يضعف فيها عنصر الابتكار ، وازيد الان على ذلك ان في كثير منها كل أوجه النقص التي سردتها عن القصة المكتوبة للقراءة ، غير ان اوجه النقص في المسرح ، وكذلك في السينما – بوجه خاص – واضحة مجسمة ، يضاف اليها تفشي عامل التشويق بشكل متكلف ، وتملق العواطف على نحو مبالغ فيه . وكل ناحية من هذه النواحي تحتاج الى بسط لو مضيت فيه لطال بي الحديث .

ورب قارئ يسأل : ما هو العلاج لما يلاحظ من أوجه النقص ؟ والجواب الموجز ان هذا العلاج مرهون بارتفاع مستوى الثقافة الشعبية ، وارتقاء الذوق العام للقارئ والمشاهد ، بل المؤلف نفسه . فان الثقافة اذا عمت والذوق اذا ارتقى خطا الانتاج القصصي في طريقه الى الكمال الفني المنشود . وبالرغم مما الاحظ على انتاجنا القصصي من مآخذ فانني ارى ان قصتنا بعد الحرب سيكون لها اتجاهات خاصة تتبعها ، وستتبعها مضطرة صحيح ان شخصيتنا بدأت تتكون وتبرز في القصة ، ولكننا سنتأثر مرغمين بالآداب الاجنبية الاوربية ، والتيار الذي سيكون له حظ السيطرة على النزعة الادبية في اوربا بعد الحرب هو الذي سيغمر ادبنا ، ومنه القصة .

وارى ان المذهب الكلاسيكي في القصة ، اي اصول القصة المقررة المتبعة ، سيزول ، وفي الواقع ان علائم نزعة جديدة بدأت تظهر في افق القصة العربية منذ الان ، وترمي الى التخلص من هذا المذهب التقليدي وتتبع القصة الاروبية الجديدة ، اي ان العناية لن تتجه اولا الى الحبكة القصصية او القالب ، فهذا امر اصبح في المرتبة الثانية ، بل ستتجه العناية الى خواطر المؤلف ونزعته الفكرية التي تدفع القارئ الى اعمال ذهنه لاستنتاج بعض ما يريد المؤلف .

محمود تيمور

جحيم...

◆

سليم حيدر

الكرى ، يا جفني المقروح ، لا يأوي اليكَ
والهنـا ، يا قلبي المصدوع ، محظور عليكَ
والشقا ، يا فكريَ الوخـاز ، من صنع يديكَ

●

بعضُ مـا في القبر أو في القفر يا رب الحطيمِ
من خلودٍ وطمأنينةِ نفسٍ ونعيمِ
لو أتاني ، لنجـا عبدك من هذا الجحيمِ

☆

عندما أطلع الاستاذ صلاح الاسير على « جحيم » الدكتور سليم حيدر أحب ان ينقله الى « نعيمه » فأهداه هذه الابيـات :

و... نعيم

◆

صلاح الاسير

الهوى ، يا قلب ، دفءُ النفس في وادي النعيمِ
في اشقرار الشعر ، في العينين ، في الثغر الرجيمِ
في التقـاء البكر ولهى تتملّى من كرومي

●

النعيم الحق ، عرس الشوق ، في الحب المغنّي
نترعُ الدنيـا هنـاء زورةٌ بعـد التجني
انا لا استعجل القبرَ ، ولي وجـدي ودنّي

كيف تغلب الانسان على الالم

للدكتور نقولا فياض
عضو المجمع العلمي العربي

لا اريد(*) بالألم هنا ألم المادة وحده دون سواه ، ويرجع اصله في خرافات الاقدمين الى الآلهة ، فقد اقام الألم في عالم الخلود قبل ان ينزل الى عالم الفناء. فكان «را» اله الشمس يتعذب من ضعف الشيخوخة ، «وايزيس» تتوجع من التهاب الثدي وهوريس اله النور يشكو الرمد ويتألم من لدغة العقرب ، كما ان باخوس اله الخمر لم يخرج من بطن امه الا بالسكين ، وكذلك اسكولاب اله الطب. على كل حال فالألم قديم على الارض وقد رافق الانسان منذ عهده بالوجود . ومنذ المعصية الاولى قال الله لحواء بالاوجاع تلدين . وقد سجلت انّاته من خلال العصور فيما تبقى لنا من اثار المصريين وملوك نينوى وبابل واشور حيث نراه الشغل الشاغل للسحرة والكهان واصحاب التيجان. الساحر يبحث عن العلاج والكاهن يصلي من اجل ابعاد الداء ولابس التاج يستشير الآلهة فيما يجب عمله لدفع آفاته. وقد وجد مكتوبا باللغة المسمارية على لوحة من الصلصال اخرجت من بطن الارض الكلدانية صلاة لاميرة بابلية تقول فيها : « لقد عض الالم عليّ بنابه فانتزعه من جسمي يا الهي » وهي اول صيحة للالم كتبتها يد الانسان على ما نعلم. ثم توالت الاكتشافات من الواح عثر عليها في بقايا مكتبة سردنابال ملك الاشوريين ورق غزال يرجع عهده الى الفراعنة وجلد بقر محفوظ من ايام زرازوسترا واناشيد هندية وغير ذلك وكلها تحمل اثار الالم وقد وجد بعض المنقبين في معابد اسكولاب متحفاً غريباً من هامات وصدور واحشاء مصنوعة من الحجر او الشبيه اي (البرونز) وقد شوهها الالم وافسد صورتها وبدل شكلها. وعلى جدران الهياكل وقبور الاشوريين والمصريين والتماثيل القديمة وانقاض بومباي ابقت لنا ايدي الفنانين صوراً خالدة للالم من عيون هجرها النور وشفاه لا تزال تختلج بالانين. وفي الاساطير ان « بوليفم » (وهو من رعاة يسمون بالسكلوب ، ضخام الاجسام يختلفون عن سائر البشر بأن لهم عيناً واحدة في الوجه) اسر عولس وحبسه في كهفه على سفح الاتنا فانتقم عولس منه بان سمل عينه الوحيدة ثم فر من سجنه متعلقاً باذيال الماعز. وقد ترك لنا فن الاقدمين مثالاً لهذا الراعي الاعمى هو افصح مثال للالم. كما ترك صورة لفلكتات احد طلاب هيلانة الذي جرح في ترواده وفسد جرحه فكان ينبعث منه روائح كريهة لم يقو الاغريق على احتمالها فتركوه وحيداً في لمنوس. وهناك صور اخرى لادونيس مصروعاً بالخنزير البري « ولنيوبه » ملكة تيبة وقد اخترقت جسمها النصال وتحولت الى حجر ، ولاوكون كاهن ابولون وقد التفت عليه الافعى .

ومشى الالم مع الانسان عبر الدهور فملأت اخباره اساطير القديسين وملاحم الابطال الى عصرنا هذا حيث ساق الباحثين درسهم مشاهير الرجال الى اكتشاف الالم في كل خطوة من حياتهم. كرستوف كولومبوس وارامس ولوتر وكالفن وروسو وموليير ولويس الرابع عشر ونابليون وروبنسون وبتهوفن وداروين وكثير غيرهم وقد كان لويس الرابع عشر يتألم من الناسور حتى ان المؤرخ ميشله قسم عصره الى قسمين : قبل الناسور وبعده. وكان موليير يمثل في احدى رواياته دور المريض الوهمي عندما احس بوجع شديد في احشائه فتجلد حتى نهاية التمثيل ثم حمل الى البيت وهو يلفظ انفاسه الاخيرة . وكان نيتشه يقول : لي من السنة مئتا يوم موقوفة على الالم .

واذا ذكرنا عظماء الرجال فلا يعني ذلك ان الالم مقصور عليهم فعلى الارض ملايين من الناس ليسوا ابطالا ولا قديسين ولا مخترعين ولاهم اصحاب ديانات او مذاهب فلسفية وكلهم عبيد الالم. وقد يتألم الفرد الخامل الذكر فلا يعرف اله الا عندما ينتشر ويتناول الجماعات بشكل وباء . وشواهد التاريخ عديدة على اهوال الكوليرا والطاعون والجدري وفتكها الذريع بسكان مملكة الدباء وما فعلت بأثينا في اوج عظمتها وبيزانس في إبان مجدها وازدهارها.

تلك كانت حالة الانسان ازاء الالم سواء اجاء هذا الالم من داخل الجسم ام من الخارج مهدداً حياته مسبباً موته ، عندما تعرف الى ألم آخر غايته حفظ هذه الحياة المهددة واقصاء الموت عنها. ذلك هو مبضع الجراح .

(*) هذه صفحة من كتاب بهذا العنوان يصدر قريباً في سلسلة جديدة شهرية من الكتب تنشرها الاديب تحت عنوان «كتاب الاديب»

النظريات الاقتصادية عند ابي الفضل الدمشقي

بقلم الدكتور صبحي المحمصاني
الاستاذ في جامعة بيروت الاميركية

في اواخر القرن الثاني عشر للميلاد اي قبل ابن خلدون بقرنين ، صنف الشيخ ابو الفضل جعفر بن علي الدمشقي رسالة عنوانها كتاب الاشارة الى محاسن التجارة – ضمنها طائفة من الاراء الاقتصادية فيها من النضوج الشيء الكثير بالقياس الى ذلك العصر .

وقد ابتدأ ابو الفضل رسالته هذه بتقسيم الاموال . فقسمها الى اربعة انواع : – المال الصامت . والعروض والعقار والحيوانات .

فالمال الصامت يشمل النقد في جميع اشكاله . ومن الغرابة ان نجد ابا الفضل يأتي بآراء سابقة كثيراً لعصره فهو يرى ان حاجات الناس كثيرة ومتنوعة . ولما كان الانسان لا يستطيع ان يهيء بنفسه كل ما يحتاج اليه وكانت حياته اقصر من ان تساعده على تعلم المهن جميعاً كان عليه ان يتعاون مع غيره من اعضاء المجتمع . وبذلك اصبحت جميع المهن التي يتعاطاها الناس مرتبطة فيما بينها ، اذ يختص كل فرد بفرع معين منها . فيعطي ما يفيض عنه لقاء ما يحتاج اليه .

وقد اوضح ابو الفضل ما يعترض هذا التبادل النوعي او المقايضة من عقبات متعددة . فان من يملك محصولا ويريد ان يستبدل به محصولا آخر هو بحاجة اليه لا يوفق دائماً الى شخص مستعد لتحقيق رغبته . ولو فرض انه وفق لهذا الشخص ، فثمة صعوبات اخرى منها التفاوت بين قيم الاشياء المتبادلة اوعدم قابليتها للقسمة .

وتلافياً لهذا النقص في نظام المقايضة استطاع بعضهم ان يتوصل الى ايجاد طريقة متوسطة صالحة لان تكون مقياساً مشتركاً بين جميع الاشياء وهي تقوم على العملة او المال الصامت . واستعانوا على ذلك بالمعادن بعد ان صرفوا النظر عن النبات والحيوان لانها عرضة لسرعة الفساد ، ثم تجنبوا الحديد من المعادن لانه قابل للصدأ كما تجنبوا الرصاص لانه لين ولا يثبت على لونه الاصلي . واقر بعضهم النحاس ولم يقره البعض الآخر لما يتركب عليه مع الزمن من مواد سامة . على انهم قد اجمعوا كلهم على اختيار الذهب والفضة لانها يفضلان جميع المعادن الاخرى من حيث اننا نستطيع ان نعطيها ما نريد من شكل او حجم . فهما قابلان للانقسام لا تشوبها رائحة ولا طعم .

لهذه الاسباب كلها نجد جميع الامم تتخذ من الذهب والفضة مقاييس مشتركة للاثمان . او كما يقول ابو الفضل نفسه ، (ثمناً لسائر الاشياء) .

ولما كانت الاشياء على اختلافها يمكن انتشترى بهذه المعادن الثمينة فقد اصبح بمقدور كل من يملك قدراً منها ان يحصل على ما يحتاج اليه في الوقت الذي يريد . ومن هنا نجد ان العملة ليست مقياساً للاثمان فحسب بل هي فوق ذلك وسيلة للوفر والادخار .

وليس يهمنا في هذا المقام ان نشرح جميع ما اتى به الشيخ ابو الفضل من آراء حول هذه النقطة . وانما المهم ان نذكر ان نظرياته عن الحاجة الى النقد وفوائده الاقتصادية في التعامل ، وعن افضلية المعادن الثمينة ، كل هذه النظريات كانت كاملة لا شائبة فيها . وابن خلدون نفسه لا يعدل الشيخ ابا الفضل في هذا المضمار .

ثم يتعرض ابو الفضل للقسم الثاني من الاموال وهوقسم العروض او باقي الاشياء المنقولة . فيرى ان لها قيمة متوسطة ، نسبية تختلف باختلاف المكان . فثمن المرجان مثلاً في الشرق يختلف عنه في الغرب وكذلك بضائع تكون في الغرب اغلى ثمناً منها في بلاد اليمن لان اليمن اكثر قرباً من مركز تصديرها .

ويضيف ابو الفضل الى ما تقدم ان القيمة المتوسطة ترتبط بعدة عناصر . وهو بهذه المناسبة يحيط بكثير من الحقائق كارتباط الاسعار بالمكان ، ووحدة السعر في السوق الواحدة ، وتقلب الاسعار عادة حول قيمة متوسطة ، والاسباب التي تؤثر في

هذا التقلب لا سيا قضية العرض ، هذه الامور جميعاً التي هي اليوم من الحقائق الثابتة في علم الاقتصاد .

ويقدم هذا المؤلف للتجار ، بعض الوصايا ويحضهم على شراء البضائع الغالية الثمن عندما تكون السوق هابطة ويحذرهم من شراء البضائع الرخيصة عندما تكون السوق مرتفعة . ولتوضيح هذه القضية يعطي بعض الامثلة فيقول : لنفرض مثلا ان الثمن المتوسط لبضاعةمعينة دينارا ن فاذا ارتفع هذا الثمن الشرائي الى اربعة دنانير ثم نزل الى ثلاثة سمي رخيصاً ولكن سوقه مرتفعة وعلينا انلا نشتريالبضاعة بهذا الثمن اذيمكننا انتظار هبوطجديد في هذا السعر . اما اذا كان الثمن الشرائي قد نزل ، على العكس من ذلك ، الى دينار واحد ثم صعد الى دينار ونصف الدينار فمنذئذ يسمى غالياً ولكن سوقه هابطة . وكل تاجر يقظ عليه ان يغتنم هذه الفرصة ليشتري من البضائع مؤونة كافية لان حالة كهذه تنذر باشتداد الطلب .

وبعد العروض يأتي الشيخ ابو الفضل على ذكر العقاراتفيرى ان افضلها ما كان محرراً من كل قيد وبعيداً عن كل تهديد او مضاربة . ومما هو مرغوب فيه ايضاً ان تكون العقارات واقعة في اماكن محاطة بالعدل والامن اذ بذلك يكون دخلها مضموناً في جميع الحالات اي دون كبير عناء من قبل المالك . وفوق ذلك يرى المؤلف ان تكون ضريبة الاملاك (الخراج) قليلة كيلا ترهق المزارع .

واخيراً يتكلم ابو الفضل في القسم الرابع وهو الحيوان ولا نرى فيه ما يوجب التوقف عنده من الناحية الاقتصادية .

وبعد بيان اقسام الاموال يتعرض مؤلفنا الى طرق اكتسابها وتحصيلها . فيذهب الى ان الثروة تجمع اما عن طريق المصادفة والعرض او عن طريق القصد والطلب . فيدخل في الطريقة الاولى الارث ووجود الخبايا التي لم يبق لها احد . اما الطريقة الثانية فتكون على ثلاثة انواع اكتساب المغالبة واكتساب الحيلة واكتساب المركب .

فاكتساب المغالبة اذا كان شرعياً يشمل جميع انواع الضرائب والمكوس . واذا كان غير شرعي فيندرج تحته السرقة والنهب وما اشبه .

ثم اكتساب الحيلة يشمل التجارة والصناعة وما كان مركبا منها . ففي التجارة عقد ابو الفضل فصلاً مطولا ولكن معظم ما جاء في هذا الفصل يدور حول مبادىء عملية تكاد لا تهم عالم الاقتصاد . فهو يخصص صفحات عديدة لتوضيح الحيل والاساليب التي يمكن بها تجنب الغش والخداع ويشرح بعض الطرق التي يلجأ اليها عادة البائعون ورجال الاعمال للغش ويقترح لها بعض العلاجات الملائمة ثم هو يعرض العمليات التجارية المختلفة ويقسم التجار الى فئـات . فيذكر قبل كل شيء التاجر الذي يختزن البضاعة ويسميه بالخزّان ، وهو الذي يشتري كمية كبيرة من البضاعة عندما تكون رخيصة فيختزنها منتظراً الوقت الذي يقل فيه عرضها ليبيعها باثمان مرتفعة . فاذا قل العرض وكثر الطلب تم للتاجر تصريف بضاعته بارباح وافرة .

ثم يذكر المؤلف تاجراً آخر يسميه بالركاض وهوالذييتعاطى التجارة الخارجية فيشتري البضائع بكثرة من كل مكان ليبيعها بعد ذلك حيث يندر وجودها وترتفع اسعارها .

واخيراً يذكر التاجر المجهز وهو ليس سوى تاجر من كبار التجار له مندوبون في البلدان الاخرى يصدر اليهم البضائع ليتولوا تصريفها في الاسواق .

ويهمنا قبل ان نفرغ من هذه النقطة ان نذكر النصائح التي يقدمها المؤلف للتجار فهو يرى ان على التاجر اولا ان يحتاط للغش في الكيل والميزان ويحذر من السماسرة لانهم منافقون يصفون الشيء الواحد باساليب مختلفة . فالتاجر اليقظ يحترز من التجـار الآخرين ولا يهمل استشارة اهل الخبرة . واذا اراد شراء شيء بحث عن بائع محتاج للمال ففاز بطلبه بثمن بخس . اما اذا اراد ان يبيع شيئاً فينتظر الشاري المضطر للشراء باي ثمن وعندئذ يحسن الا يطلب ثمناً باهظاً بل يكتفي بارباح معتدلة اذ بغير ذلك قد لا يربح شيئاً مطلقاً .

والنوع الثاني من ضروب الاحتيـال في طلب الاكتساب الصنائع . وهيعنده اما علمية كالفقه والنحو ، او عملية كالحياكة والفلاحة ، او مركبة من العلم والعمل كالطب والكتابة . والصنائع يفضل بعضها بعضاً . ويجري التفاضل من وجهين وهما من قبل موضوعها ومن قبل غايتها . فالطبيب افضل من النجار ، لان موضوعه الابدان وحفظ الصحة وليس الخشب والسرير والباب .

والطريقة الثالثة لاكتساب الثروة عن طريق الحيل هيطريقة وسطى مشتركة لوقوعها بين التجارة والصناعة ، مثاله العطارة والبزازة .

وهناك طرق اخرى لاكتساب الثروة تقع بين اكتساب المغالبة واكتساب الحيلة ويسوق ابو الفضل مثالين عن ذلك . اولها

ضمان الاملاك الواسعة او استئجارها من قبل الامراء والاسياد ·

وثانيها عقد الصفقات التجارية من قبل الدولة · ويستنكر المؤلف مداخلة الدولة والامراء في التجارة لان احداً من التجار لا يجرؤ على مضاربة السلطان فالسلطان وحده يستطيع عند الشراء ان يغنم اكثر من اي انسان كما يستطيع عند البيع ان يستخدم نفوذه فيفرض الاسعار الفادحة فابو الفضل الدمشقي هو اذن متحرر قبل ابن خلدون اذ يستنكر مداخلة الدولة في امور الاقتصاد ·

ويجب الا ننكر انه قد وفق في تقسيم طرق اكتساب الثروة كل التوفيق كما وفق في كشف الحيل التي تمارسها المجتمعات البدائية في التجارة فاثبت بذلك ما جاء به شارل جيد من ان التجارة (قد بدأت بالغش والحيلة والقوة) ·

ولا بد من الملاحظة ان ابا الفضل يعطي اهمية كبرى لاكتساب الثروة ولكنه حين يتناول هذا الموضوع لا يعرض له الا من ناحيته الفردية · اي من ناحية تأثير الثروة في ميراث الفرد · اما الناحية الاجتماعية ، وهي اشد تعقيداً من الاولى ، فانه يهملها في بحثه ·

ويروي المؤلف قول احد الحكماء لابنه : « عليك بطلب العلم والمال فالخاصة تكرمك للعلم والعامة تكرمك للمال » ويذكر ايضاً قول احد الادباء : « من ملك الصفراء ابيض وجهه واخضر عيشه » والثروة في نظره فائدة كبرى للانسان ولكن هذه الفائدة تختلف باختلاف نوع الثروة نفسها ·

فالثروة المكونة من المعادن الثمينة تفضل بقية الثروات لانها ذات ثمن كبير في حجم صغير وبواسطتها نستطيع اقتناء ما نريد ·

ونرى المؤلف يهتم كل الاهتمام باظهار الفائدة من تنمية الثروة الصامتة او (المال الصامت) ويخصص لذلك عشر صفحات · وهو في هذه النقطة يفارق الفقيه الفيلسوف الغزالي الذي يذم الثروة ويمتدح الفقر ·

وابو الفضل لا يرى للثروة سوى عيب واحد وهو حين يستخدمها الملوك والفاتحون والحاسدون فتكون في ايديهم سلاحاً ظالماً شديد الخطورة ·

ويتضمن كتاب الاشارة بعض النصائح لحفظ الثروة فيجعلها على نوعين · ويحتوي الاول منها على خمس نصائح ايجابية تتوجب على الانسان لاجل تنظيم دخله وخرجه وهي : ان لا ينفق اكثر مما يكتسب ، وان يكون ما ينفقه دون ما يكسبه ، وان يبتعد عما يعجز عنه ، وان لا يشغل ماله بالشيء الذي يبطيء خروجه عنه ، وان يكون سريعاً الى بيع تجارته بطيئاً عن بيع عقاره وان قل في ذلك ربحه وكثر ربحه في هذا ·

اما النوع الثاني من هذه النصائح فهو سلبي يستهدف الخصال التي يجب على المرء ان يحذرها في انفاق المال وهي اللؤم والتقتير والترف والبذخ وسوء التدبير واما علاجها فيكون : بالاحسان وعدم التضييق والاقتصاد والبعد عن الانهماك بالملذات وحسن التدبير ·

ويخلص المؤلف الى القول بان الانسان المحترز يتدارك قبل كل شيء حاجاته الرئيسية وحاجات عائلته ضمن طاقته ثم يساهم في الاعمال المؤدية الى خير الانسانية ويدخر بعد ذلك قسماً من ماله ·

ويرى ابو الفضل ان رأس المال انما يتأتى من الاعتدال في الانفاق ومن القناعة والاقتصاد وقلة العيال ·

فالعائلة الكبيرة بلا ريب سبب من اسباب اضاعة المال ·

وعلى الجملة ، فان ابحاث ابي الفضل الدمشقي كانت من ناحية الثروة الفردية ليس الا · ولم تتعرض كثيراً للناحية الاجتماعية ، ولمشاكل الانتاج التي تشغل علماء الاقتصاد في عصرنا الحاضر ·

صبحي المحمصاني

اليد اليسرى

بقلم امين الغريب

✡

هل الاعسر — وهو من يعمل بيسراه — احط في شيء من الذي يستخدم اليمنى ؟ والا فلماذا تقوم قيامة الوالدين عند اكتشافهم ان الولد اعسر . ولماذا يعنى المعلمون في المدارس باصلاح تلك الظاهرة التي يعدونها نقصا في التلميذ ؟

كل من يسمع بهذه الاسئلة يعرف ما رسخ في الاذهان من اجوبتها . لكنه يجهل غالباً ما ارسل العلم الحديث عليها من الاشعة المنيرة .

قرأت في صباي ان فكتوريا ملكة الانكليز العظيمة استحسنت عمل ادوين لندسير لما زارها في قصر بلمورال واخذ يصور امامها رسوما مستخدما الريشة بيديه اليمنى واليسرى على السواء . فاوصت بعد ذلك بتنشئة اولادها على استعمال اليدين كلتيهما حتى اذا « تعطلت احداهما قامت الاخرى مقامها » ولماشب الاولاد وتزوجوا اخذوا في دورهم ينشئون اولادهم على مثل ذلك .

ولو كان الامر عادة ميسورة للجميع بالتمرين لوجب الاقدام عليها اذ ليس يدرك اهميتها احد كالذي تتعطل يمناه حينا فتضطره الى استخدام اليسرى التي لم يسبق له تمرينها على ادنى عمل .

كان الفونسو الثالث عشر ملك اسبانيا الاخير ممتازا بين الملوك بخاصتين : الاولى انه ولد ملكاً . ولم يتأت ذلك لسواه . أي انه لما مات ابوه كانت امه حبلى به فجاء ملكا حالما ابصر النور . والثاني انه الملك الوحيد الذي كان في عصره يستخدم اليسرى بدلا من اليمنى اجل كان له ضريع في ذلك بشخص اميل لوباه رئيس جمهورية فرنسا . لكن لوباه تولى الرئاسة مدتها المحددة ثم غادر الكرسي فظلت لملك اسبانيا لذة التفرد بهذه الصفة ان كان ثمة لذة . اما زوجته فكتوريا اينا ففاقته في هذا الموضوع باقتدارها على استخدام اليدين اليمنى واليسرى على حد سواء . وكانت تكتب وتصور وتخيط وتطرز بيديها الاثنتين . وهي حفيدة الملكة فكتوريا الانكليزية وقد شابهت خالها الملك ادوارد السابع وابنة خالها مود ملكة نروج ونسيبتها ماريا فيودورفنا والدة القيصر نقولا الثاني آخر امبراطور على روسيا .

وللملكة فيكتوريا شهرة واسعة في اتقان السياسة الدولية . والناس من اعجابهم بالمتفوقين في شيء واحد يميلون الى تقليدهم في كل شيء . لهذا رأينا بعض الجرائد تسأل احياناً جاك دمسي الاميركي زعيم الملاكمين في عصره رأيه في تدبير المنزل . ويستشيرون موسليني في الكلف الظاهرة على وجه الشمس . ومعنا بكثيرين يحاولون تقليد فيكتوريا في اولادهم . لا لانهم عرفوا تأثير عملها في ايدي اولادها . كلا . بل لمحض انها ملكة الانكليز وامبراطورة الهند . على اني سعيت لتحري الاسباب التي تجعل الواحد منا يستخدم اليمنى والاخر اليسرى . وهل هي عادة يألفها الولد في عهد الطفولة كما قيل ، من كون امه تناوله الاشياء بيمناها فيأخذها بيسراه المقابلة لها . ام هي ميل طبيعي فيه يرجع الى تركيب خاص في جسمه يختلف عن سواه .

هذه الاسئلة عينها حملت كبار الباحثين على العناية بها ودرسها فنشرت جامعة كولمبيافي نيويورك خلاصة ابحاثهم في كتيب مخصوص للدكتور هفنر احد اساتذتها وزعته على معلميها كي يفهموا ان عنايتهم الحادة باصلاح هذا « النقص » في الاولاد هي نقص كبير فيهم يجدر بهم اصلاحه .

اختار الدكتور ثمانية وستين زوجاً من التلاميذ كل اثنين منهم متماثلان في الجنس والسن والسلوك والاجتهاد والمزايا الخاصة . لكن احدهما اعسر . وانما اكتفى بثمانية وستين زوجاً لانه لم يجد اكثر . واخذ يمتحن الفريقين في كل زوج ويراقب الحركات والسكنات فلم يتبين فيها اختلافاً . عنايتهم بجميع الامور متشابهة وهمومهم متساوية في مصادرها ونسبتها . حتى

الشباب واناقتها كانت تؤثر في ميول الفريقين تأثيراً متماثلاً . على ان الاعسر كان احياناً اكثر مرونة واسهل انسجامـاً في المحيط المدرسي من رفيقه .

هذه النتيجة في نيويورك اعادت الى ذهني مثلاً سائراً في لبنان عن الضربة السديدة التي لا تخطيء المرمى اذ يقال انهـا « ضربة عسراوي » . وهو عندنا الاعسر .

واستنتج الدكتور ايضاً ان المعـارضة القـاسية لرغبة الولد الطبيعية في استخـدام يسراه لا تفيـده . بل تفقـده التوازن والسكينة . وتحدث خصوصاً في جهازه العصبي اختلالا اول مـا تظهر بوادره في التلجلج بالكلام .

ولكن لماذا يتلجلج اللسان من محاولة المرء التحكم في يديه لم يتضح لي في بداية الامر السبب في هذا العـارض . لكن عدداً من مشاهير العلماء الانكليز في كلية لندن اشبعوا الموضوع درساً وتمحيصاً . واستنتجوا ان الدماغ ، كما صـار معلومـاً هو الحاكم المطلق في حركات الجسم الاختيارية . فلكي تحرك يدك او رجلك او لسانك يجب ان يصدر لهـا الامر بذلك من دماغك بواسطة اسلاك عصبية مشتبكة بتلافيفه الخاصة كأنهـا اسلاك التليفون . وقد اثبت علم التشريح ان « المركز » الاصلي لاعصاب اليدين في الدماغ متصل ومشتبك بمركز اعصاب اللسان والشفتين . فمن تضطره انت الى تحريك يديه خلافاً لميله الفطري يلجأ فوراً الى اعصاب اليدين المتسلسلة من الدماغ فتستصرخ جيرانها اعصاب النطق للمدافعة عنها واول مظهر للاحتجاج العام على ذلك يتجلى بانعقاد اللسان وارتجاف الشفتين .

ثم ان العالم الاميركي سيمنز بارسون من ولاية فرجينيا قضى السنين الطوال يبحث ويدقق فلاحظ ان لكل انسان في الدنيـا عيناً اقوى من الاخرى وان العين اليمنى اقوى من اليسرى . الا في الاعسر فعينه اليسرى كيده اليسرى اقوى من اليمنى والآن لا بد ان نسأل لماذا يكون احد الناس اعسر — كل مـا ادرك العلم حتى الان ان استخدام اليمنى او اليسرى عملية تحاك في الدماغ . وليس تحليل هذا النسيج الدماغي واعادة نسجه ميسوراً والناس من قبل التاريخ يعملون باليمنى . ومن حين الى آخر يشذ بينهم عن القاعدة من يعمل بيسراه . ولا يدل هـذا الشذوذ على شيء . ليوناردو دافنشي الايطالي مشهور بالتصوير كرافائيل . وهو مصور « لاجوكوند » تحفة الاجيال الفنية بابتسامتهـا الغـامضة المحيرة للافكار فلا يعرف الناظرون اليها أهي ابتسامة حزن او فرح .

وكان من اكبر العلماء في عصره بالهندسة والطبيعيات والموسيقى وكان اعسر .

ومما يستحق الذكر ان اكثر التوائم يولد احدهمـا اعسر . لكن اخاه يكون اقوى بنية منه .

ومعلوم ان الدماغ بيضوي مقسوم الى نصفين . ويؤكـد اقطاب الطب ان نوعاً من الاذى (يدعونه التفاف بروكا) اذا تأتى على نصف الدماغ الايسر افقد الانسان النطق — ان كان يعمل باليمنى . اما وهو اعسر فيستمر على النطق رغم ذلك الاذى . ولكن حاول الاذى المذكور في النصف الايمن من دماغ الاعسر يخرسه . ويبقى مستخدم اليمنى متكلماً سليم اللسان . اما لماذا فالعلم يقف امام هذا السر مكتوف اليدين .

ان مستخدم اليمنى اذا تعطلت يمناه سهل عليه تمرين اليسرى لان الضرورة القاهرة تنتدب جميع قواه للتعـاون على سد النقص الذي طرأ . اما قبل ذلك فكل محاولة من هذا القبيل حتى من الملكة فكتوريا تفشل لان الاعسر اليسر (وهو الذي يستعمل اليدين كلتيهما) كالشعراء يولد ولا يصنع . والتغلب على الطبيعة في الاجسام صعب كالتغلب على الايام في قول الشاعر :

ومكلف الايام ضد طباعهـا   متطلب في المـاء جـذوة نار

كان اللورد بادن باول احد ابطال الانكليز في حرب الترنسفال اعسر يسراً يمتطي صهوة جواده عن الجـانبين . ويمتشق سيفه بالقبضتين وينتضي المسدس باليـدين .. ويسـدد البندقية عن الكتفين ولا يجـد الخبراء فرقـاً بين خطيه المختلفين . ومن جهة اخرى سمعنا ان احد كبار الجراحين الحاليين في اوربا اعسر يسر . وان هذه الصفة لم تفده بل عرقلته احياناً اذ كان يحـار بأية اليدين يعمل . وقد فحص العلماء رواد السجون فلم يجدوا بينهم اعسر يسراً حتى الان مع ان هذه المزية جوهرية خصوصاً للنشالين .

وانا اعرف صيدلياً في الولايات المتحدة يشكر الله لانه خلقه اعسر . فقد باغته قاطع طريق يوماً وصوب اليه مسدسـاً وامره بالجمود وكانت يسرى الصيدلي في جيبه قابضة صدفة على مسدس صغير . فاستعان بالله وضغط الزناد من داخل جيبه فانطرح الشقي صريعاً كما لوصفقته السماء .

اكاد اسمعكم تهتفون . « لاشلت يداه » . فاقول « وايديكم » ايها القراء الكرام . والسلام عليكم .

امين الغريب

على هامش تاريخ الترجمة اليونانية العربية

حياة الفكر اليوناني في العربية

بقلم
باول كراوس
الاستاذ بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الاول

ليس موضوع « الترجمة اليونانية — العربية » خبراً تاريخياً ماضياً فحسب ، بل هو موضوع حديث له خطره وقيمته في كثير من النواحي ، فمسائل الترجمة وقضايا التقاء الثقافة العربية بالثقافات الاجنبية التي عاناها التاريخ العربي قديماً ، هي نفس المسائل والقضايا التي يقف ازاءها العالم العربي اليوم . واني على ثقة بان نجاح القدماء من العرب في تعريبهم لفكر اليونان القدماء ، سيدفعنا الى ان نكون تلاميذ اولئك العرب في تعريب الثقافة الحديثة ، او سيكونون مساعدينا فيها ، ان لم يكونوا استاذينا ، وسنتبع كثيراً من مناهجهم حتى تسير هذه الامة العربية المحببة الى قلوبنا في عصر نهضتها ، بل في عصر وحدتها ، وسيلة ثقافية من اول طراز ، كما كانت في القرون الوسطى .

ولابد لي قبل ان اخوض في كلامي الا ان انوه بأنه ليس قصدي ان اقدم ابحاثاً منظمة مرتبة ، لها اصول وبنود ، ابحاثاً جامعية اكاديمية ، لاني لو اردت ذلك لامتنع عليّ الموضوع في مثل هذه الكلمات ، فهذا موضوع طويل عريض متشعب .

وانا هنا لا يمكنني ان اعرض الا نتفاً ونقطاً من موضوع واسع ، لعلي بذلك اشوق بعضكم الى التبحر في المسائل التي امسها بالتلميح . والواقع اني لا اجيء اليكم باحثاً ، بل داعيا الى فكرة والى عمل ، فالمشروعات الثقافية التي نتعرض لها لا يقوم بها فرد ولا جماعة قليلة ، بل تحتاج الى تكاتف مجموعة من الهيئات وتعاضدها ، وعندئذ فقط ، يحيا تراث الاقدمين ، ويصبح ذا فائدة حقيقية للمحدثين .

المعروف ان مراجعنا للآداب اليونانية متدرجة في قيمتها وفي عصور اجيال الباحثين الذين عثروا عليها ، ولاحاجة لي ان اذكركم بعصر النهضة الاوربية الذي اكتشفت فيه المخطوطات اليونانية فتمتع بها رجال الاصلاح واقتنوها وأفادوا منها الشيء الكثير .

ان الكشف عن هذه المخطوطات قد نفد او كاد ، لانه ليس في وسع أحد اليوم ان يأتي بمخطوطة يونانية قديمة لم تتصفحها ايدي الباحثين الى الآن . وكان آخر الاكتشافات المثيرة ، المهيجة لحماسة الباحثين هو اكتشاف مصحف طور سيناء في القرن الماضي ، ومنذ ذلك الوقت لم نعثر على مراجع جديدة . وقد حدث في اواخر القرن الماضي ان عالم الدراسات القديمة اكتشف مصدراً فكرياً هاماً هو الاوراق البردية التي وجدت في تراب مصر . ولم تكن هذه الاوراق اوراقاً اجتماعية فقط بل وجد فيها ايضاً اوراق تحتوي على ادب وفلسفة وشعر من فكر اليونان ، لان من حسن حظنا ان اليونان القدماء ، ولاسيما في الاسكندرية وفي عصر « الايلينيس » كانوا قد اسسوا مدارس ، وهذه المدارس ليست كجامعة الاسكندرية الكبرى ، بل مدارس صغيرة للاطفال ، درس فيها ابناء الاسكندرية في اوراقهم البردية شعر هوميروس وغيره من شعراء اليونان وكتابهم ومن اجل هذا وصلت الينا بقايا من هذه الكتب في هذه الاكتشافات الاخيرة .

صحيح ان الاكتشافات في هذا الميدان لم تقف بعد ، فكل حفرية في مصر تستطيع ان تكشف لنا مصادر جديدة ، ولكننا لا نظن اننا سنجد بعد الآن كتباً دائمة لافلاطون وارسطو او مسرحيات لربيدس ومانندر وغيرهما ، او كتباً كاملة لابيقور كما وجدنا سابقاً ، ومن شأنها ان تقلب دراستنا عن الفكر اليوناني .

نعم قد اهتدى بعض الحافرين في هذه السنين الاخيرة الى اكتشافات متنوعة، وتعرفون ان الاوراق البردية التي تسمى اوراق بردية الملك فؤاد الاول، تحتوي على كتب لاور يجانس، وكذلك اكتشف منذ اسابيع معدودة فقط في بعض قرى الفيوم في مصر، قطعة من الاوراق البردية تشتمل على قطع او اجزاء من الترجمة السبعينية، ويقوم استاذنا «وادیل» بنشر هذا المرجع الهام قريباً. ولكن كل هذه الاكتشافات ستبقى مكملة وثانوية فقط للتراث الذي اكتشف سابقاً، والذي ترجمه العرب.

اغفل المتخصصون في اليونانيات ترجمات كتب يونانية متنوعة الى اللغات الشرقية، ولا سيما الى اللغة العربية، فكم من كتب يونانية ضاع اصلها ولم يبق لنا الا عنوانها او بضعة اسطر منها، وهذه الكتب وصلت الينا بتمامها، او عثرنا على قطع منها احيانا، مترجمة الى اللغة العربية ترجمة دقيقة تمكن المتخصص في تلك الشؤون ان يردها الى اصلها اليوناني من غير مشقة ولا عناء. ان هذه الكتب ليست من كتب متأخري اليونانيين فقط بل من بينها كتب الكبار مفكري اليونان، من بينها مثلاً: كتاب النبات لارسطو، هذا الكتاب الذي ضاع اصله ولم يصل الينا شيء منه، بل وصلت الينا ترجمة لاتينية مأخوذة عن العربية، ثم ترجمت اللاتينية في القرن السابع عشر الى اليونانية الحديثة. وقد اكتشف في خزائن اسطمبول مخطوطة كاملة لهذا الكتاب مترجمة ترجمة دقيقة بقلم ابي عثمان الدمشقي، وهو من كبار المترجمين المتضلعين باليونانية، والقادرين على الترجمة مباشرة من تلك اللغة، (أي انهم لا ينقلون عن السريانية المنقولة عن اليونانية). وقد نشر هذا الكتاب في مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٥. ولكن الى الان لم يترجم هذا الكتاب الى لغة اوربية ليكون تحت تصرف الباحثين، حتى يستطيع اصحاب الدراسات القديمة ان يفيدوا منه، ومثل ذلك كتب ارشميدس وغيرها...

والواقع ان هذه الكتب، ثروة موجودة في مكتباتنا، تدل على تأثير قوي، ليس هذا التأثير هو نقل عبارة يونانية الى عبارة عربية، ولكنه تأثير الثقافة اليونانية في الثقافة العربية، ثم تدل فوق هذا على الدور العالمي الذي حظيت به الثقافة العربية في الشرق والغرب.

ان اصحاب الدراسات اليونانية جنس عجيب! انهم اغفلوا البحث عن هذه التأثيرات، لا في الشرق فقط، ولكن في الغرب ايضاً. فلم يهتم احد من اصحاب الدراسات القديمة بتأثير الفكر اليوناني في النهضة الاوربية. او في تاريخ القرون الوسطى، فهم لا يتصورون المسائل الهامة التي تثيرها مثلاً كتب غاليله، ولا يعلمون ان كوبيرنيغ لم يصل الى اكتشافاته لولا قراءته لكتب ارسطارغوس، وان سبينوزا لم يصل، — ولا يهمنا ان نتحدث عن فلسفته الخلقية — الى نقده للديانة على النحو الذي سجله في كتبه وخصوصاً في Traité réligieux لو لم يقرأ القطع المختلفة لابيقور وفيثاغور. ولا عدد لما ينبغي ان يحصى هنا، فضلاً عن ارسطو وافلاطون... فضلاً عن اثر المسرح اليوناني في المسرح الحديث...

اغفل اصحاب الدراسات القديمة هذا الامتداد الحي للفكر اليوناني وتركوه للمتخصصين في تاريخ القرون الوسطى أو للفكر في القرون الوسطى، ولمؤرخي الفكر والعلوم في عصر النهضة.

بل اهمل اصحاب الدراسات القديمة، ولهم عذرهم، البحث عن انتقال الثقافة اليونانية الى الشرق، وهذا طبيعي لانه اذا كان هناك اللغة اللاتينية التي تمكنهم من فهم النصوص، فقد حال بينهم هنا عدم فهمهم للغة العربية، وضاع عنهم اهمية التقاء الثقافة العربية بالثقافة اليونانية والمسائل التي تنشأ حول هذا الموضوع.

واما المستشرقون المحترفون للغة العربية، فانهم، والحق يقال، أعرضوا كل الاعراض عن هذه المسائل، اما لانهم نسوا القليل من اللغة اليونانية التي تعلموها في المدارس الثانوية، او لانهم يعرضون عن اليونانية لبغضهم إياها، فهم يفضلون شعر الفردوسي على هوميرالف مرة ومرة. هؤلاء لا يعرفون اليونانية ودورها الخطير المثقف شرقاً وغرباً، انهم معذورون لان من طبيعة الانسان ان يبغض ما يجهل... واذكر انه كتب الي احد المستشرقين المعروفين، — بعد ان كتبت اليه كتابا وذكرت كلمة فيلسوف في ثنايا كلامي — فقال: يا سيدي انك لست على سبيل الحق لانك تظن ان كلمة فيلسوف معناها بالعربية philosophe ففيلسوف

بالعربية لا تستعمل ألا بمعنى زنديق !..

ونتيجة هذا ، ان هذه الثروة الكريمة من المخطوطات والموجودة في الخزائن يتراكم عليها التراب ، تنتظر ناشريها الذين لا بد لهم ان يعرفوا اللغة اليونانية معرفة ثقافة واللغة العربية معرفة ثقافة ، ثم الطرق المثلى للترجمة ، وان يكونوا من ارباب التجربة والذوق ومن الذين يعرفون مناهج النشر، وفوق هذا كله ان يتصفوا بنوع من « الجاحظية » . . .

أليس حقاً اننا نحتاج الى ايد عادلة تتعهد مثل هذه المشروعات؟

والان التفت بسرعة الى الفئة الثانية ، الى الآخرين الذين لا يعرفون اليونانية ، وقعت عيني في صحيفة الاهرام اخيراً على خطبة لتشرشل ، فاشتبه عليّ من هذه الترجمة امور ،فاشتريت في نفس الصباح « اجبشيان ميل » لاطلع على الاصل الانكليزي ، فقرأته فرأيت نقاطاً لفتت نظري ، فالتفت الى بائع الصحف وقلت : هات المصري، والوفد والمقطم والبلاغ . . واذا بي امام عجب عجاب . . لم أحدثكم عن اخطاء مادية عابرة يرتكبها المترجمون في هذه الخطبة العالية الشائقة ، ارى اننا امام مسائل ذات وزن ومقدار حقاً . . .

نرى قبل كل شيء هذا التردد في المصطلح العربي الحديث ، كل مترجم حر في وضع جملته، وبعضهم يفوق الآخر في جمال الجملة العربية التي ترد المعنى المترجم عن الفكر ، والى جانب هذا ايضاً ، يوجد مجموعة من المعارف والمصطلحات التي لم يتفق عليها العالم العربي الى الان ، لم يصل في شأنها الى وحدة حقيقية ، وليست المجامع اللغوية هي التي تسوي هذه المشاكل وتحلها.

ليس هذا موضوعاً حديثاً ، ولكن المشاكل التي تعترضنا ، قد اعترض بها القدماء قبلنا ، حفل بها القرنان ونصف القرن اللذان تعهدا ترجمة الفكر اليوناني الى العربية ، وقد نجح العرب القدماء ، فاذا اقتفينا آثارهم ، فلا شك اننا سنفيد اشياء كثيرة في حوائجنا الحديثة

هنا المعجزة ! ان اللغة العربية لغة اصحاب ابل وغنم ، اهل بادية ، قبائل شتى، اصبحت في يوم من الايام لغة عالمية ، ولم يصبح هذا دفعة واحدة ، ولا طفرة ، بل بتثقيف هذه اللغة ، لا باليونانية فقط ، بل بالهندية ، والايرانية اولاً ثم باليونانية .

وليست اللغة العربية في توفيقها في صحة العبارة وانتشارها في القارة العربية والاسلامية ، تقوم بشيء جديد ، فاللغة العربية في اتساعها من الاندلس الى الهند ليست الا وارثة لاتساع اللغة اليونانية والثقافة اليونانية منذ عهد الاسكندر .

وقد ابتدأ منذ عهد الاسكندر وقبله هذا التلقيح بين الشرق والغرب . اقول ، ليست اللغة العربية في دورها العالمي في القرون الوسطى إلا وارثة لدور عالمي اتيح لليونانية . وفي هذا يقرب عمل اللغة العربية في الشرق من عمل اللغة اللاتينية في الغرب ، بل اني اقول: ان اللغة العربية أصبحت وسيلة او آلة ثقافية تفوق من جميع النواحي والف مرة ، اللغة اللاتينية ، ولا سيما لاتينية القرون الوسطى ، سواء كانت هذه النواحي في قوة العبارة او امانة النقل او دقة التعبير عن الفكر اليوناني.

واعجب من هذا ان الدارسين يظنون ان اكثر البحوث قد كملت ، انه لا يمكنهم ان يكتبوا عن ارسطو وافلاطون ، لانهم يرون امامهم مجموعات ضخمة من المراجع ، وليس لهم امل في ان يبتكروا شيئاً جديداً لان كل شيء قيل . . هل قيل كل شيء حقاً؟ الغريب ان اصحاب والدراسات القديمة لا يرون الغابة من كثرة الاشجار . . .

هل فكر احد منهم ان يبحث عن مناهج الترجمة اللاتينية ، وان يستخلص منها مـا نقصد اليه الآن من البحث الدقيق عن الترجمة اليونانية ؟ نحن المستشرقين الشرقيين فقراء مبتدؤون ، نبحث في كل موضوع دون ان نبحث في دراسة حديثة حول الترجمة ، وكل دراساتنا حولها قليلة لا قيمة لها .

ألم يقل ابو الريحان البيروني في كتابه « الصيدنة » جملة ، ليست هي تعصباً للغة العربية ، بل هي الحق : « والى لسان العرب نقلت العلوم من اقطار العالم فازدانت وحلت في الافئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والاوردة » وله الحق ان يقول مثل هذا فهو ليس من اصل عربي ، والعربية لغة تعلمها بعد الطور الاول من حياته ؛ أليس هو الذي يتابع قوله : وان كانت كل امة تستحلي لغتها التي الفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها مع الافها واشكالها . واقيس هذا بنفسي ، وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب والزرافة في العراب ، ثم منتقلة الى العربية والفارسية فأنا في كل واحدة دخيل ولهـا متكلف . والهجو بالعربية احب الي من المدح بالفارسية وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفـارسية كيف ذهب رونقه وكسف باله واسود وجهه وزال الانتفاع به اذ لا تصلح هذه اللغة الا للاخبار الكسروية والاسمار الليلية.

القاهرة — باول كراوس

«الخيـــالآتي»

عمر ابو قوس
حلب

في القبة الزرقاء منذ القديم   يقيم معبود الجمال العظيم
في ميعة العمر وزهو الصبا   مستغرقٌ في لهوه لا يريم
كأنه من حسنه يقظةٌ   حالمةٌ أو زهرةٌ في النجوم
يحلمُ أحلاماً ويهوى السنا   ويحجب النورَ بليلٍ بهيم
فتخرجُ الاشياء من عنده   شفَّافةً صنع خبيرٍ حكيم
قد هزّني الشوقُ الى قربه   ولم يزلْ بالحسن قلبي يهيم
رأيته أمس وقد صوّرتْ   كفّاه فوق الافق شتى الرسوم
فهذه حواء في عريها   تبدو وهذا آدمٌ في النعيم
وهبت الريح فما خلفت   مما أرى إلا الرؤى والظنون
وأقبلت في الافق من بعدها   سحائب تحمل سرّ السنين

●

فذاك وجه الارض في خجلة   لما أتاه آدم الجاهلُ
أعشابها تندى وأزهارها   يقطر منها المدمعُ الهاطلُ
يمشي وحواء الى جنبه   مطرقة يشغلها شاغلُ
تفاحة ناضجة حلوة   ما ضرّ لما ذاقها الآكلُ
وأقبلت أبناؤها بعدها   وأمرهم من امرها ناهل
حتى اذا ما امعنوا في الهوى   وعمّهم بعد الهدى الباطل
جاءتهمُ من ربهم دعوة   يحملها من بينهم حامل
فكذّبوه فدعا ربّه   فجاء طوفان لها غاسل
وهبت الريح فما خلفتْ   مما أرى إلا الرؤى والظنونْ
وأقبلت في الافق من بعدها   سحائب تحمل سرّ السنينْ

●

فذاك جيشٌ زاحفٌ للوغى   يدفعه للحتف جلّاده
تخدعه الالفاظ برّاقة   والمجد والدين وأحقاده
حتى اذا روّى أديم الثرى   وغشت البطحاء أجساده
عادت الى التيجان أمجاده   وفاز بالصفقة قوّاده
وقيل هذا ملكٌ حازمٌ   قد قلّ بين الناس أنداده
وعاد ذاك القائد المرتجى   في الروع قد أكرم ميلاده
وذلك المجهول في قبره   ميعاده الجنة ميعاده

حيث الظلال الخضر ميأسة   وحيث يلقى العيش مرتاده
وهبت الريح فما خلفت   مما أرى إلا الرؤى والظنون
وأقبلت في الافق من بعدها   سحائب تحمل سرّ السنين

•

فـذلك الشاعر في عزلة   بين الربوع الخضر والجدول
يرسل في الغاب اناشيده   على جناحي حبه المثقل
حب مطلّ فوق هذي الدنى   مستوفز ينظرها من عل
يستنطق الاحجار من رقة   فيه ويرجو يقظة الجندل
ويحسب الاشياء من حوله   تفهمه في صمتها المخجل
ألحانه تأسو جراح الورى   وسرهم في صدره يغتلي
معقودة بالفجر ألحاظه   يرنو الى ذاك السنا المقبل
فهل ترى تصدق احلامه   ويلتقي الناس على المنهل
وهبت الريح فما خلفت   مما أرى الا الرؤى والظنون
وأقبلت في الافق من بعدها   سحائب تحمل سرّ السنين

•

فتلك حسناء هضيم الحشا   قد أطلعت في قومها كوكبا
أهدى اليها الحسن ما تشتهي   وزادها الناس هوى طيبا
حتى اذا ما اصبحت فتنة   وأينعت فيها ثمار الصبا
مشى اليها الموت من لونه   ودسها في حفرة مغضبا
فأصبحت بعد ثلاث لقى   تسفي الجنوب فوقها والصبا
وأصبح الدود على هونه   متخذاً وجنتها ملعبا
حتى اذا طال عليها المدى   تفتحت عنها زهور الربى
ولوّح الخلد بسلطانه   وأصبح الموت كبرق خبا
وهبت الريح فما خلفت   مما أرى الا الرؤى والظنون
وأقبلت في الافق من بعدها   سحائب تحمل سرّ السنين

•

فذاك صب غارق في الهوى   يشكو حبيباً زاد في هجره
أهدى اليه قلبه راضياً   وخصه بالسر من سره
فماله عنه غدا معرضاً   ومـاله يمعن في كبره
عين رأت روضاً فما بالها   لا تملأ الكفين من زهره
أعجبها من خده ورده   وراقها النرجس في نحره
وشاقها من حسنه قبلة   يطبعها الوهم على ثغره
فما على الفرصة لو أمكنت   من نهده الريان او خصره
الحب سكر بالحجا مولع   فمن يطيق الصحو في سكره
وهبت الريح فما خلفت   مما أرى الا الرؤى والظنون
وأقبلت في الافق من بعدها   سحائب تحمل سر السنين

•

فذا اديم الارض قد زانه   زهر الربى والورد والنرجس
وذا غزال ناعم في الفلا   وذاك ليث فاتك أشرس
وذاك ليل قد غدا حالكاً   وذا نهار بعده مشمس
والناس هذا شوكه بارز   وذاك صل جلده أملس
وذي حصان في النسا حرّة   وذي شرود في الهوى مومس
وذا غني فضله يرتجى   وذا فقير عنده يحرس
وذا خطيب قد علا شأنه   وذا خطيب ناطق أخرس
نواقص تجري اعاجيبها   يحار فيها العاقل الكيس
وهبت الريح فما خلفت   مما ارى الا الرؤى والظنون
وأقبلت في الافق من بعدها   سحائب تحمل سر السنين

•

يا مطرب الكون بألحانه   ومالي الدنيا بأبهى الصور
حجابك السحري ما شأنه   وما الذي خلف الحجاب استتر
هل موقد ثم شديد اللظى   أم روضة يعبث فيها القدر
أم ثم شيء آخر لم تزل   أسراره يعجز عنها البشر
أمد عيني نحوه جاهلا   فأنثني حيران واهي النظر
كما يمد الطفل كفاً له   يريد ان يمسك ضوء القمر
ربّاه كحل مقلتي بالسنا   وابعث الى روحي ببعض الشرر
نحن الفراشات فما بالنا   نخشى من النور ونبدي الحذر

•

رسّام هذا الكون ما ينثني   يبدع رسماً بين حين وحين
والسر كل السر في أنه   يصبغها دوماً بلون العيون

القرية المهجورة

بقلم الآنسة «ابنة الشاطئ»

★

ريف مصر

«... مضت القرية في هدأة المساء، تفتقد على الضوء المتدفق من السماء، لياليها الخوالي وأمسها الذي ولى وراح. وأمضت ليلتها مسهدة تنتظر ابناءها الذين هجروها وخفوا الى المدينة حين انحدر اليهم نداؤها حافلا بإغراء البعيد وسحر المجهول. حتى اذا مضى الليل وانبلج الفجر، أغمضت القرية المهجورة عينيها في غفوة ذاهلة تائهة، تسأل عن سمارها أين هم ومتى يرتدون اليها، ليردوا اليها ماضيها السعيد..»

ادركنا القرية في ساعة الاصيل، فوقفنا عند مدخلها نرنو اليها في حنو وهي تتشح بغلالة شاحبة من الاضواء الباهتة الغاربة، ثم تجمع أشلاء دنياها وتسكن الى صمت موحش مريب!

وكان هناك زورق صغير قد انزوى على شط الغدير معطلا، وفي ركن منه جلس الملاح الفتى منكمشا يعبث بشباك الصيد، ويرسل الى الدنيا من حوله نظرات شاردة خرساء. فدلفنا اليه صامتين، وانساب بنا الزورق فوق المياه في رفق، واخذ المجداف يمس الماء مسا رفيقاً فيحدث صوتا خفيفا فيه شجو وله رنين.

سألناه: ألا تغني؟

فحدق في الافق البعيد، وتحركت شفتاه في همهمة خافتة، ثم ما زالت تعلو حتى ملأت الوادي الساكن، وأشاعت فيه الشجو والفتون.

وكان القمر قد تدثر بوشاح من السحاب الفضي الرقيق، فلما علا صوت الملاح مزق القمر وشاحه، واندفق نوره الابيض فأضاء الانحاء، ولمحنا على النور الباهر وجه الملاح الفتى وقد فني في اغنيته، فاذا بنظراته التائهة ترنو الى بعيد وتدعو الى بعيد، واذا به يسكب قلبه في ألحانه، فتنبعث من أعماقه ممزقة مجروحة. كان يسأل عن نجمه الذي أضله، اين هو ومتى يعود؟ كان يهتف بنجوم السماء ان تدله على نجمه الذي تعود ان يجمع السمار ويحيي الليالي، ثم مضى وغاب، فتشتت الشمل وتفرق السمار...

•

صحت القرية المهجورة على هذا الصوت الحزين الذي يحدث عن مأساتها، وفتحت عينيها المتعبتين، فاذا النور يملأ واديها ويتوج روابيها، فمضت في هدأة المساء تفتقد لياليها الخوالي وامسها الذي ولى وراح...

هنا في هذه المروج المعشبة، كان يجلس الشاعر، يتحدث عن قيس وليلى ويرتل ألحان حبها العبقري، فيحبس الفتية أنفاسهم ويصغون اليه بعيونهم وقلوبهم وكل كيانهم، حتى اذا فرغ الشاعر من قصة المجنون، تاهت نظراتهم في ذهول الحلم، وغشيت أعينهم سحابة رقيقة فإذا بهم قد انتقلوا الى الصحراء النائية حيث قيس هائم بين مضارب البدو ومنازل بني عامر، يفتقد ليلاه: يسأل عنها النجم والليل

والوحش ، فيهتز النجم ، ويبكي الليل ، ويئن الوحش ، وينطلق المجنون هائماً على وجهه يملأ الدنيا شجواً ونحيباً .

•

وهنا . . . فوق تلك الربوة المتوجة بالنور الابيض كانت فتاة القرية تلتقي بصواحبها حين تعود من المدينة ، فتحدثهن عما تلقاه في دنيا الناس ، حتى اذا اروت فضولهن بالحديث عن المدينة ، استردت نفسها وعاد اليها مرحها الاصيل فانطلقت بصواحبها الى المروج والوديان ، يغنين في أصوات صافية رقيقة ، تشجي الطبيعة والقرية والليل ، فتسكن الطبيعة ، وتهتز القرية ويصغي الليل !

•

وهناك . . . عند شط البحيرة ، كان السمار يجتمعون فوق العشب الندي يلعبون ويسمرون ، ويجهدون عقولهم ليعرفوا (اى شيء يجتاز البحر دون ان يبتل ؟ واي شيء في حجم الفيل ويطوى في منديل ؟) فمن عجز عن معرفة الجواب حكموا عليه بتقليد اصوات الحيوان ، او فرضوا عليه دفع قرش يشترون به اعواداً من القصب لامير السمار !

•

وهنالك . . على حافة الغدير ، كانت نار الدفء والقرى تشعل في المساء ، فاذا ارتفع لهيبها هرع اليها ابناء الحي يلبون نداءها ، واحاطوا بها في تزاحم رفيق ، حتى اذا هدأت جمراتها الحمر ، تلقت نظرات الحالمين والذاهلين الشاردين ، وعكست ضحكات السعداء الخليين ، وانصتت الى قصص السمار ، ومتاعب الرجال ، واحلام الشباب ، وهذر الصبية الصغار !

•

اين مضى هؤلاء جميعا ؟!

لقد تعودت القرية ان تراهم ينطلقون الى ملاعبها في الامسيات المقمرة ، فيصحو معهم الليل الساجي ويضج بهم الوادي النائم . وهذا هو القمر قد اكتمل فصار بدرا ، وهذه هي الربوع التي شهدت احلى ليالي السمر واشجاها ، قد اتشحت بغلالتها النورانية البيضاء ، وتهيأت لاستقبال السمار . والقرية المهجورة ساهرة تنتظر ، وترسل نداءها يدعو النائين الراحلين ، فما يستجيب لصوت سامر ، وما يخف احد الى مكان اللقاء .

•

اليوم يلم بها الشتاء ، فلا نار ولا سمر ، ويناوش البرد اطرافها فتنكمش على نفسها ، ويطوف بها الهم فلا تجد ما يصرف عنها همها او تعالج به سهدها .

تمزق الشمل . . . وتشتت السمار . . . وتعطلت الملاعب . . . وسكنت البحيرة . . .

وانزوى الزورق على شط الغدير معطلا ينتظر اوبة الراحلين .

وباتت القرية في اقصى الوادي ، تنادي ابناءها الذين هجروها وخفوا الى المدينة حين انحدر اليهم نداؤها من وراء الروابي ، حافلا بأغراء البعيد وسحر المجهول ، باتت القرية المهجورة تدعوهم اليها بصوتها الشاحب الحزين ، فتصده السدود القائمة عند أطراف المدينة ، وترده اليها ذبيحا مشردا !

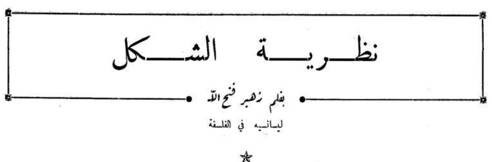
•

ومضى الليل ، فانطلق القمر الى مأواه ، وانحدر وراء الافق البعيد ، وترك القرية المهجورة ضالة في غلس الظلام ، فاذا بالفراغ الموحش يملأ دنياها ، واذا بها تنطوي على احزانها وتغمض عينيها في غفوة متعبة ذاهلة ، بعد ان الح عليها السهر واعياها الانتظار . .

تشردت احلامها الباهرة ، وتعطلت ربوعها ومغانيها ، ووجمت النغمات على شفاهها الذابلة ،

وانزوى الشعر في أطوائها مجرح الاصداء !

ابنة الشاطىء   ريف مصر



نظـــريــــة الشــــكل

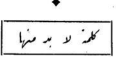
بقلم زهير فتح الله

ليسانسيه في الفلسفة

☆

هي احدى النظريات التي تقلب علم النفس رأساً على عقب وتضعه على اساس جديد يتوافق والنظرية الواقعية والتجريبية للدراسات وفي هذا البحث الذي لم ينشر موضوعه بعد في اللغة العربية يجد القارىء عرضاً عاماً مفصلاً لنشوء نظرية الشكل وتطورها.

◆



كلمة لا بد منها

مضى حين طويل من الدهر كان علم النفس يدرس فيه على طريقة التاريخ ، ذلك ان جميع الكتب التي كانت تستعمل في هذا العلم ، كانت عبارة عن عرض آراء علماء النفس في العادة او الذاكرة او التصور او الادراك مثلا ، دونما تعرض الى ابحاث وتجارب العلماء المحدثين في هذه المواضيع. وبما ان معظم هذه الكتب قد ألف في مستهل القرن العشرين ، فان النظريات التي تذكر فيها ، انما هي نظريات نشأت وترعرعت وقويت في تلك الآونة من الزمن ، التي كان علم النفس فيها لا يرى وسيلة للبحث الا البحث المنطقي ، ولا يستعين بطريقة الا طريقة الدراسة الداخلية الشخصية وطريقة التحليل المفضلة في العلوم الطبيعية. كان ذلك منذ ربع قرن من الزمن تقريباً ، ولكن هذا النوع من الدراسة قد دال الان وان كانت دولته لا تزال مسيطرة على دراستنا لعلم النفس في مدارسنا.

اقول ، لم يعد علم النفس ابحاثاً منطقية او تحليلية يتوصل اليها العالم بالرجوع الى نفسه بعد احساس يشعر به ، او تصور يتكوّن في عقله ، وانما اصبح دراسة حية لتجارب واقعية تملي علينا حقائق القوانين ، وقوانين الحقائق المتعلقة بهذه النفس التي هي كمال الخلق في هذا الكون وعنصر الوعي في مخلوقات الله. وهكذا اصبح علم النفس مادة تتخللها التجارب والمعادلات والارقام والخطوط البيانية كما اصبح لعلم النفس معامل ومختبرات وادوات ، تعيننا على السير به هذه السيرة الواقعية التي يفرضها علينا تفهم واع لجميع حوادث المخلوق البشري.

ولسنا نزعم ان هذه النزعة كانت معدومة قبل هذه المدرسة التي سندرسها في مقالنا ، فلقد وجد عدة علماء واطباء قاموا بابحاث نفسية ، نبراسهم في ذلك تفهم واقعي تجريبي لحقيقة النفس البشرية ، ولكن الذي جعل ابحاثهم محدودة الفائدة كونها كانت صادرة عن افراد ، وباحثة لحوادث معينة ، او لناحية معينة من النفس البشرية. ونحن اذ نود ان نعين بدء هذا التيار الجديد ، علينا ان نتجه الى مدرسة « الجشتلتيين ».

جشتلت (Gestalt) كلمة المانية معناها صيغة او شكل او نموذج ، وهي البؤرة التي كانت تصب فيها وتخرج منها جميع ابحاث ونتائج هذه المدارس.
اقول مدارس ، لان هذا البحث الجديد بدأ من نقطة واحدة ثم لم يلبث ان تفرع الى عدة فروع ، كان الفرع الرئيسي فيه هو مدرسة برلين وعلى رأسها العلّامة فرتيمر. اما العلماء الذين نبه صيتهم في هذه المدارس فهم: فرتيمر ورويك وكوفكا وكوهلر وبوهلر وبنوسي.

ابتدأت ابحاث هؤلاء العلماء تظهر للناس في مستهل العقد الثاني من القرن العشرين ، ثم تتابعت تجاربهم ومنشوراتهم الى سنة ١٩٣٠ حيث اخذت الحركة النازية في السيطرة على المانيا فنزح هؤلاء جميعاً الى اميركا حيث وجدوا صدراً رحباً وامكانية للتفاهم مع مدرسة السلوكيين التي تطبع علم النفس في اميركا بطابع يكاد يكون مسيطراً عليه.

ان هذه الصورة الجديدة لعلم النفس ، أي الصورة التي يعطيها الجشتلتيون للدراسات النفسية لم تصبح مدرسية بعد ، بمعنى ان الكتب المدرسية لا تشير اليها ولا ترى واجباً لذكرها ، لذلك ليس لنا ان نطمع في فرض هذا النمط من دراسة علم النفس على صفوف الفلسفة في المدارس الثانوية ، وانما جل ما نصبو اليه هو ان ندفع بناحية من نواحي افق معرفتنا الى الامام ، حتى لا نكون بمعزل عن التيارات التي تسير العلم في هذا العالم.

بدأت التربية بالاستفادة من هذه المدرسة فطبقت مبادئها في الادراك على تعلم القراءة فكانت لنا الطريقة الجمعية وهي التي تتيح للطفل تعلم الكلمات والجمل قبل الاحرف. ونحن نأمل ان نعود يوماً الى البحث فيها ، وكان نجاح هذه الطريقة باهراً وتاماً تقريباً. اذن فمدرسة علم النفس الشكلي لم تكتف باكتساح الاوساط المجددة في علم النفس بل تعدتها الى عالم التربية ، مما يدل على إمكانيات كبيرة للنجاح في اسسها. ونحن لا نشك بأن علم النفس صائر ولا بد الى الاخذ بنظريات هذه المدرسة ، ولكن ذلك الانتقال لن يتم طفرة ، وانما سيأخذ بعض الوقت.



علي قبل ان ابدأ بكتابة هذا البحث ان افكر في الطريقة التي سأتبعها في كتابته. امامي بحث عن نظرية جديدة، لها كلماتها واصطلاحاتها الخاصة، وهي اذا لم تكن قد خلقت هذه الكلمات، او اذا استعملنا لغة الصرف، اذا لم تكن قد اشتقتها من اخوات لها، فانهــا على الاقل قد جعلت لها دلالة خاصة، وذلك لتعبر عن رأي او معنى جديد اكتشفته هذه النظرية، كذلك امامي عرض دقيق، ابرز ما فيه اتصال شديد بين مقدماته وعروضه واستنتاجاته، وامامي للتغلب على هاتين الصعوبتين او قل لازاحتها مسلكان:

الاول: ان اعمد الى الكلام عن هذه النظرية بكلمات واصطلاحات النظريات القديمة: هذه الكلمات المحملة بعبء ثقيل من المعاني القديمة، والتي قد لا تكتفي بأن لا توضح المعنى المقصود الذي رمى اليه اصحاب هذه النظرية، بل قد تذهب الى اخطار ضده بالبال.

والثاني: ان انظر الى خلاصة لهذه النظرية، وان اعمد الى سرد نتائج جافة لابحاث رجالها، لا تعطي فكرة صحيحة من مجهودهم ولا عن الطريق الذي سلكوه في بذل هذا المجهود، وبهذه الطريقة اكون قد نزعت حيوية العمل الذي قام به « الغشتلتيون » وقد تنكبت عن السير في المسلك الاول، كما رفضت الاخذ بالثاني.

بقي علي اذن ان احاول التعبير عن معاني القوم بالفاظهم التي اختاروها، او باقرب الالفاظ اليها والى تأدية المعنى الذي قصدوه. كذلك كان علي ان لا اعمد الى النتائج فاسردهــا بتراء. ولكن ان اسعى، ولو باختصار، الى بيان الطريق الذي ترسمه اصحاب النظرية للوصول الى نتائجهم وقراراتهم. وهذا ما قمت به.

كذلك اردت ان اعقب البحث الخاص بالنظرية ببيان الفروق بينها وبين سائر المذاهب والمدارس الفلسفيــة والنفســية، وان اذكر بعض الانتقادات

اصول فكرة الشكل — علم النفس التحليلي ونقاده

لعل فكرة علم نفس خاص بالشكل لم تنشأ الا كرد فعل لعلم النفس التحليلي الذي انتشر في القرن التاسع عشر، والذي اتبع سبل العلوم الاخرى التي كانت تعتمد التحليل كمنهج تصل به الى مكتشفاتها. ولقد افسح تحليل المعاني « L'analyse idéologique » لذلك العلم مجال التقدم، فرأينا المناصرين له يأخذون الوقائع النفسية على انها احساسات كأحساسات كوندياك، لم يسبقها شيء. ثم رأيناهم يحاولون ان يرجعوها الى أرجاع تخص العضو. ولقد كانت رغبة علم النفس التحليلي هي ان يقيم جدولاً يبين فيه خصائص هذه الاحساسات: من خاصة نوعية، وشدة، وعلامة موضعية، ثم ان يعين تلك الارجاع بواسطة تهييج آلة لاقطة (عصب معين او عضو حاس) وعصبية معينة او نوعية عصبية.

لقد كان محتوى الاحساس الصحيح يوجد في عنصر آخر غير عنصر الرجع الذي علقوا عليه كل اهمية، انه كان يوجد في الصورة، التي هي في الاصل اعادة Reproduction لهذا الرجع. ولقد كانت تختلط هذه الصور باحساساتنا الحالية في تصوراتنا ومدركاتنا العادية احياناً، او تظهر احياناً اخرى في مجموعات اكثر خلوصاً مما ذكرنا، هذه المجموعات هي ما يكوّن ذكرياتنا او تفكيرنا.

ولكن كان علينا بعدما وصفنا العناصر ان نعمد الى ترتيبها وتفسير طريقة تجمعها، كذلك كان علينا ان نفسر تنظيم المجموعات فيها كما نفسر اعمال الجزئيات في هذه المجاميع. لقد كانت هذه العملية تبدو محاولة لدى جماعة « التداعي » L'associationisme الذين كانوا يرون ان التداعي او الترابط L'association يحصل من تحاذي العناصر وتواجدها في الزمن، ثم يتمكن ويتقوى باعــادة وتكرار هذا التحاذي والاتصال. ولقد كان علم النفس في القرن التاسع عشر يعمد الى البرهنة على ما ذكرنا بذكر حوادث حصلت فيها صلات متينة بين عناصر مختلفة، وذلك لتلاصقها فقط عند فرد من الافراد، فكان أي شيء يمكن له ان يتشارك او ان يكون عنصراً للتداعي مع أي شيء آخر. ولذلك كنا نستطيع ان نقول: ان اتصال هذه العناصر النفسية المختلفة لا يوجد صعوبة اكثر من الصعوبة التي يتم بها الاتصال بين اشارة شرطية ورجع عكسي شرطي Reflexe conditionnel عند بافلوف. اما عن حدود هذه

المجموعات النفسية وعن تفسيرها وعن معناها وقيمتها فقد اكتفى هؤلاء العلماء بان يرجعوها الى ارتباطات حصلت بواسطة اتصالات عرضية بين عناصر يختلف بعضها عن البعض الآخر. ولقد شعر علماء النفس انفسهم ان هذه النظرات لا تكفي لتعليل سير هذا السيل من الحياة النفسية، ورافق هذا الشعور عندهم كثير من النقد والتحوير في نظرياتهم. ونحن، اذ نود ان نعين فجر نظرية (الشكل او البناء او التنظيم) في الزمن، علينا ان نلقي نظرة على الانتقادات التي وجهت الى النظريات القديمة والى الاصلاحات التي كانت موضع التطبيق.

لنتساءل مثلاً: هل يمكن لعملية تداعي العناصر ان تقدم لنا وصفاً صحيحاً لمحتويات الشعور الظاهرة؟ ان عملية تداعي العناصر او تشاركها، وان تكن تبدو واضحة في هيئتها البدائية وتطبيقها المحدود، الا انها كانت تبدو غامضة عند تعميمها، وما القوانين المشهورة التي نجدها عند ارسطو الا ملاحظات بسيطة لتداول الافكار وتعاقبها، أي لتداول لحظات متمايزة من التفكير يمكن ملاحظتها. ولكن التداعي الذي يربط التصور والاحساس والصور لم يعد تداولاً بسيطاً لحالات متمايزة يدعو بعضها البعض الآخر. ان الشعور هناك يتنبه الى هذا التشابك والاختلاط في الظواهر، اذ هو تفكير يثبت ان التصور مشحون بالذكريات. من هذا ما نلاحظه عند قراءتنا لكلمة تعودنا ان نقرأها، فهذه القراءة تتطلب منا وقتاً هو اقل بكثير من الوقت الذي نأخذه لقراءة نفس الاحرف المؤلفة منها الكلمة، وقد رتبت بشكل غير اعتيادي. وهذه الظاهرة الاولية — ظاهرة الاحرف المجموعة بشكل معين — التي كانت خالقة لمعنى او لقيمة ما، قد نسيت وتجوهلت، واصبح المدلول شيئاً ملاصقاً للدال عليه، او هو صفة اولية له. واصبح التحليل هنا عاجزاً عن ان يفصل في مدركاتنا بين العناصر المتأتية من الذاكرة وبين العناصر المتأتية من الاحساس.

وهناك من التجارب ما يوضح هذه النظرة ويجعلها قريبة التصديق. مثال ذلك التجارب التي قام بها بينا Binet. فانه لم يستطع ان يقرر في تجربة الوخز برأسي الفرجار اذا كانت الاحكام التي يعطيها الشخص الموخوز ناشئة عن «الاحساس» بالوخز ام عنه وعن «الصورة» التي في رأسه عن هذا الوخز. كذلك ادراك المسافات لا يحتوي الشعور الذي أحست به عضلات العين التي يجب — كما يقول اصحاب التشارك والتداعي — ان تضاف الى الاحساسات النظرية... والادراك الحسي لمماسكة شيء من الاشياء نمسك به، لا يحتوي الاحساسات المفصلية الخاصة بالاصابع والمفصل والمرفق والكتف، التي يجب — كما يقولون، او على حسب نظريتهم — ان تشترك او تتداعى مع الاحساسات الجلدية...

ولكي يحل علماء النفس في القرن التاسع عشر هذا التناقض بين (مدركات) الشعور الخام وبين نتائج التحليل، عمدوا الى اضافة فكرة «المزج» او «التركيب» الى نظريتهم. اذ رأوا ان العناصر تفقد شخصيتها في هذا المزج. ولكن حتى هذه الفكرة لم تستطع ان تنقذ «طريقة التحليل» من الانهيار.

واذا كان علماء النفس قد تهيبوا في ذلك الوقت تقويض منهج التحليل فان بعضاً من الفلاسفة لم يتهيب، واوجد هذا الوصف الوقائعي (وهنا نسبت الى الجمع دفعاً للالتباس، والوقائع النفسية في هذا التفسير ليست الا تجارب الشخص المباشرة). اما عن التحليل فانه قد ابدل بحدس ليس هو الا الرجوع الى المشعورات المباشرة، التي تبدو متنافرة واي ذرية عقلية، أي ان هذه المشعورات تتنافر مع تقسيم يقوم به الشخص المجرب على الوقائع النفسية. فليس هناك من احساس او صورة او شعور يمكن ان تنفصل عن الكل النفسي، وانما الشعور — كما مثله برغسون ووليم جيمس — نهر او كمية مستمرة غير صلبة، لا يمكن ايجاد اقسام لها الا بواسطة حيلة من الحيل، او تعمل من التعملات. ليس هناك من عناصر او من لحظات متمايزة في هذا الكل، وانما هناك تداخل متبادل مستمر. وعقلنا المتعود على معاملة العالم المادي، او بالاحرى على معاملة الاشياء الصلبة، هو الذي يعمد الى جعل هذه المادة صلبة والى تقسيمها. انه يحمل الوقائع النفسية اشياء، ويطبق عليها القوانين التي يستعملها في الميكانيكا، لانه لا يرتاح في العادة الا لهذه القوانين. وعلى هذا، فعلم النفس بما ذكرنا، يكون فريسة لخديعة عقلية. ولكن كل هذا النقد لم يكن ليرضي علماء النفس، لانه رغم صحته فهو لا يعدو ان يكون سلبياً.

وهكذا شعر العلماء في القرن التاسع عشر ان منهج التحليل المبني على فكرتي العنصر والتداعي ناقص. وصادف ذلك ظهور بعض الافكار الجديدة في الموضوع، كفكرة: البناء والمقطعية او المفصلية والمجموعة، ولكن هذه الافكار لم تكن ناضجة او كافية لبناء علم نفس تام، لذلك كان لنظرية «الشكل» فخر بناء هذا العلم، الشيء الذي سنبين المراحل الموصلة اليه فيما يلي:

نظرية صفات « الشكل » او نظرية الصفات الشكلية

في سنة ١٨٩٠ نشر عالم نفس من فيينا اسمه ايرنفاز مذكرة عن علم النفس الخاص بصفات الاشكال جاء فيها:

تتألف القطعة الموسيقية من اصوات ، كما تتألف الصورة من خطوط ونقط. ولكن هذه المركبات لها وحدة كما ان لهـا شخصية ، فالقطعة الموسيقية لها ابتداء ونهاية كما ان لها اجزاء ، فنحن نستطيع ان نتعرف بدون حيرة الى الاصوات التي تخصهـا والى الاصوات الغريبة عنها ولو وضعت بينها. كذلك تتحدد الصورة في المجال النظري بالنسبة الى باقي الصور. وعلى هذا فنحن نستطيع ان نحكم ان هذه النقاط والخطوط هي من الصورة التي نحن بصددها ، بينما هذه الاخرى لا تمت اليها بصلة، فالقطعة الموسيقية والصورة هما هيئتان او شكلان وايرنفاز يعدد كثيراً من هذه الاشكال وغيرها.

نتبين من هذا ان هناك خواصاً واضحة للاشكال تظهر حالاً عند ذكرنا للامثال السابقة ، فالهيئة او الشكل هما شيء آخر ، او هما شيء يزيد ويختلف عن مجموعة الاجزاء المكونة له، فخواصه ليست مجموعة خواص اجزائه. من ذلك ، أي من هذه الصفات الخاصة بالمركبات: اننا نستطيع ان نغير المقام Le ton لقطعة موسيقية دون ان نغير من وقعها في النفس ، او اذا شئنا ان نكون اكثر تخصيصاً ، ان نغير من ادراكنا لها. وهذه الظاهرة واضحة ، لدرجة اننا نتعرف الى هذه القطعة بسرعة ، وبدون ان نشعر بأي تغيير في بعض الاحيان ، رغم ان جميع الاصوات المؤلفة لهذه القطعة قد تغيرت ، فاصبحت جديدة او قام بعضها بوظائف تختلف عن وظيفته الاساسية. وذلك على عكس ما يحدث اذا غيرنا نغمة « Note » واحدة في القطعة الاساسية فانه يحصل لدينا قطعة موسيقية ذات صفات شكلية مغايرة للاولى.

كل هذه الملاحظات ليس لها طابع علمي ، ولكنها رغم ذلك فانها تضع امام علم النفس معضلة لم يفكر فيها من قبل كثيراً.

ان الاحساسات الموافقة لكل من اصوات القطعة كانت تبدو كأنها هي التي تؤلف حقيقة الادراك نفسهـا لهذه القطعة ، ولكن هذه القطعة ظهرت وهي تحتفظ بأنيتها وبصفاتها الخاصة ، رغم ان جميع الاصوات فيها — وبالتالي جميع الاحساسات الناشئة عن هذه الاصوات — قد تغيرت بطريقة ما. وبالعكس من ذلك: فنفس الاصوات في القطعة الاساسية ، لو غير ترتيبها ، فانهـا تتخذ وظيفة اخرى — أي تولد ادراكاً يختلف عن الادراك الاول للقطعة — رغم ان الاحساسات الموافقة والمصاقبة لهذه الاصوات لم تتغير. فالكل او المركب او البناء هو اذن حقيقة، لاتقل في وجودها عن الاجزاء.

وتحليل الادراك الى احساسات يهمل وجهاً كبير الاهمية بالنسبة للشيء الواقعي ، هذا الوجه الذي يجعل « للكل » بجـانب اجزائه ، طرافة واستقلالا لا يمكن للشك ان يتطرق اليها.

لقد كانت قيمة ايرنفاز في انه اوجد المعضلة ولو انه لم يحلهـا ، اذ انه اعتقد ان لكل شيء نوعين من الخواص: الخواص الحسية ، والخواص الشكلية ، ورأى كذلك ان الاولى هي مادة مقومة للثانية في وجودها ، وعلى ذلك فقد توجد الاولى دون الثانية ولا عكس، أي ان الثانية لا يمكن ان توجد بدون الاولى وسعى في ايجاد معنى للثانية فقال عنها انهـا « ادراك » للعلائق التي توجد بين مختلف اجزاء الاولى ، وعلل ذلك بملاحظته بأن هذه الخواص الشكلية للقطعة لا تتغير اذا تغير المقام « Ton » لجميع الاصوات في القطعة الاساسية ، اذ بذلك تكون العلاقة قد ظلت كما هي ولم تتغير. ولكن دون هذا التعليل — أي التعليل القائل بوجود صفات حسية وصفات شكلية — عراقيل جمة جعلت ايرنفاز وتابعيه يلقونه جانباً ولا يأخذون به.

من هذه العراقيل ان الادراك المباشر لهذه القطعة الموسيقية لا يمكن ان يترجم حقيقة بنسب او بعلائق بين الاجزاء المختلفة لهذه القطعة: صيغت هذه العلائق بلغة علم الطبيعة ، او بلغة النظرية الموسيقية. واذا تعمدنا ان نرى في هذه القطعة او بين اجزائهـا علائق من أي نوع كانت ، فان هذا التعمد سيحيل هذه القطعة نفسياً Psychologiquement الى قطعة اخرى مغايرة لها.

وانكار وجود هذه النسب والعلائق اوجد حقيقة استمر الناس وقتاً طويلاً دون ان يصدقوا بها. هذه الحقيقة هي: ان العناصر نفسها — دعك من العلائق — لا توجد اصلاً ne préexistent كعناصر في الشكل الاولي. لقد وجم ايرنفاز وتابعوه ، واحجموا عن الاخذ بهذه الفكرة. اذ انهم كانوا لا يزالون يتساءلون عن هذا الشيء الذي ينضم الى الاحساسات الخاصة بالعناصر المختلفة، (كالنقط في حالة الصور، او الاصوات في حالة القطع الموسيقية) حتى ندرك فيهـا — أي في هذه العناصر المختلفة — صورة او قطعة موسيقية !.. اذا كانت الحواس لا

ذهـــــول

أعذري جفنيَ اللعوبَ فقد مـالَ وانكسرْ
لمّ الحلمَ من بقية لحن على وترْ
وانثنى ، هائماً وراء شـال من الحجرْ
عبث الوهمُ في مدى جسمه الصلد وانتحرْ
ضاع إزميله .. فعـاج ذهول على الأثرْ

*

وتلوحين . انتِ .. غب سؤال قد احتضرْ
عانقتك الالوان في موكب الفن والصورْ
فإذا .. تنقلين طيفَ ذهول الى النظرْ
تتراءين صورةً هرقتْ حولهـا الخفَرْ
من ممـادير خمرتي قبست سحرَها الخطرْ
من عميق الذهول قد رقرقت بُردهـا العطرْ
تاه فكري .. فيها .. وعيني على المرمر الخصرْ

*

أعذري جفنيَ اللعوبَ فقد مـال وانكسر

دمشق — بديع حقي

تقدم لنا الا مواد او مقومات ، كما سميناها ، واذا كانت الذكريات لا تستطيع ان تعطي الادراك تنظيما ، هي نفسها خاو منه ، فيجب اذن ان تكون الاشكال ناتجة عن نشاط تشكيلي اصلي او طريف Original . وهم بذلك يضعون تجـاه الاعادة او الاحداث المتأخر « reproduction » ، التي قال بها اصحاب مذهب تداعي الافكار ، خلقا او احداثا او انتاجـاً « production » هو فوق الحسي supra-sensorielle وبهذا فهو من غير شك انتاج « فوق الفيزيولوجي supra-physiologique ».

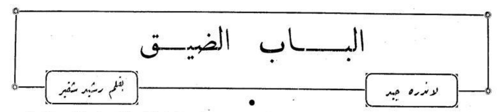
ولكن يفقد هذا التساؤل والجواب كل موجب لوجودهما اذا كانت العناصر ، كالعلائق ، لم تنشأ الا من التحليل . فالعناصر لا تبدو كحقائق نفسية مستقلة الا عندما نعمد الى تقسيم « الكل » وتجزئته . وهنا نقول : انه اذا امكننا متابعة التجزئة فإننا نستطيع ان نلاحظ في الاجزاء — التي هي الاصوات في حالة القطعة الموسيقية — مجموعة من الكليـات ، وعلى ذلك فكل صوت سيؤلف كلاً له اجزاء تنتج علائق في نفس السامع .

يخلص لنا من كل ذلك ان الاحساسات التي يقول بها علم النفس التحليلي ليس لها وجود حقيقي الا اذا اطلقنـا لفظة الاحساسات على ادراكات ناشئة عن تقسيم مصطنع لابنية — structures — ضعيفة التماسك الداخلي ، ادراكات اختيرت بدون ان يكون لهـا ميزة حقيقية على غيرها . وليس من موجب للبحث عن عملية تركيب فوق الحسية « supra-sensorielle » تجتمع هذه الاحساسات بموجبهـا وتتحد ؛ اذ ان هذه الاحساسات ليست سوى نتيجة لتقسيم الاشكال الطبيعية ، وان عملية التحليل في كثير من الحـالات لا يمكن ان تطبق عملياً بل تبقى منطقية بحتة .

ونخرج من كل ذلك بان التفرقة بين الخواص الشكلية والخواص الحسية لا يمكن المدافعة عنهـا ، لان الخواص الحسية ليست دائمة الاستقرار ، اذ انها تخضع لاشكال متغيرة ترجع اليها وتفقد فيها كل إنيّة .

وننتهي من هذه المقدمات الى الحديث عن نظرية الشكل التي نبدأ الكلام عنها في عدد قادم .

زهير فتح الله



« إجهدوا للدخول من الباب الضيق ، لان الباب العريض والطريق الرحب يؤديان الى التهلكة ، وكثيرون هم الذين يسلكونهما. فضيّق اذاً هو الباب ومديدة هي السبيل اللذان يقودان الى الحياة ، وقليلون هم الذين يجدونهما. » (الكتاب المقدس)



ادري مـا الذي أهاب بي منذ ايام قريبة الى استعادة بناء النصب الكبير الذي رفعته قدماً في قلبي لذلك الكاتب الفرنسي الكبير. نصب دعامته حب واعجاب ، وقاعدته اكبار وتقدير.

ولا أدري ما الذي جعلني آنئذ أختار من مؤلفاته «بابه الضيق» وقد مضى على قراءتي له عهد بعيد ، فأعيد مطالعته من جديد وبي الى ذلك رغبة ملحة وتوق شديد. ألانني أحمل من « الباب الضيق » ذكريات غابرة تمكنت أطيافها من خاطري ثم غشيها الزمن فأضفى عليها هالة من النسيان كثيفة أم لان بيني وبين « الباب الضيق » صلاتٍ وشيجة أردت استجلاءها لما بينها وبين حاضري من شبه وتآلف ؟ ربـما كان هذا الباعث الاخير هو الذي حملني على ولوج « باب جيد » المرة الثانية بنفس التهيب والخشوع اللذين غمراني عندما ولجته لاول مرة.

في « الباب الضيق » زفرات صادقة ابتعثها حب خالص لم يسف الى درن المادة والحس بل ظل معتصماً في علياء القدسية والطهر. حب عمر قلبين فجعل منهما جوهر المثل ، وتمخض في روحين فأنجب صرف العفاف.

في« الباب الضيق» مشاعر مخنوقة وأحاسيس مكبوتة تجنح الى الانعتاق والانطلاق فتعيدها شوكة الفضيلة الى الاعماق ساكنة هادئة.

ومن « الباب الضيق » يمتد نفق صعودي يرتفع بعابره الى سماك الرحمة حيث يرقد الازل ويجثم الجبروت. وفي تلك السماك العلوية تلتقي الارواح الطاهرة ، على موعد، فتتعارف وتتسار وتتعاقد على التبتل والضراعة. هوذاك النفق كانت تنزلق فيه «أليسا» كلما رأت نفسها بحاجة الى الله ، او احست في ذاتها بطغيان الطبيعة البشرية على الفضائل السماوية، وتمرد العاطفة الدنيا على الضمير النقي والقلب المؤمن. وفي ذلك السفر الخالد قصة حب عنيف تختلف عن غيرها من القصص بأن ليس لها نهاية موضوعة. ولكن تلك النهاية التي بقيت معلقة على فم القدر لم ينس اندره جيد ان يسطرها في كل قلب شاعر ونفس مرهفة فاستطاع بذلك ان يمهد لها سبيل الشهرة والبقاء. هي قصة في الظاهر ولكنها مجموعة منسجمة من ذكريات الطفولة الهيمانة اصطخبت في خاطر الكاتب بمـا فيها من رغبات ممتنعة وحسرات صماء فجعلته يحيا من جديد قصة حبه البائس وصباه الكئيب. صبا روع في عنفوانه وحب قضى في مهده ارضاء للفضيلة المهيبة ورغبة في الدخول من « الباب الضيق » الى الحياة التي وعد الله بها المتقين. نعم هكذا أرادت « أليسا » ، وارادتها مشيئة الله ، فدنفت بحبها قلب جيد سنوات عدة لم تنله بوصال ولم تتوج بوئام ، وما ذلك الا لانها رغبت ان تحتفظ ابداً بقلب من تحب فلا تدع شعلة الهيام التي تستعر فيه تفتر بالوصال او تنطفىء بالزواج. وهي ، وان جعلت من تفاوت السن بينها وبين جيد حجة تدفع بهـا إلحاحه وتعلل امانيه ، لا تلبث عندما تخلو الى نفسها ان تدحض تلك الحجة بمنطق يقوم على حقيقة ناصعة بدت لقلبهـا فآمنت بها عن يقين واقتناع. منطق يهمس في اذنها دوماً : « ابقي عذراء يا ابنة الآلهة تبقين على الحب والفضيلة معاً ، فيزداد جيد شغفاً بك وترضى عنك السماء ما حييت ». وذبلت بسمة الحياة على الثغر الرطيب فذوت « أليسا » غير نادمة ، بعد خمس وعشرين عاماً قضت زهرتها في جهاد أي جهاد بين منطق القلب المؤمن ونداء القلب المتيم. ذوت فخلفت لجيد الحسرة وأورثته التبرم تاركة له نسيج قصة « يمكن لكثيرين ان يحوكوا به مؤلفاً شيقاً ». اما اندره جيد فقد عنى ما قال عندمـا بدأ حديثه عن حبه بهذه الكلمات : « لقد بذلت كل قواي لاحيا تلك القصة فأضنيت بذلك الفضيلة التي كانت تعمر قلبي ». وبهذه الكلمات ايضاً أقدم نتفـاً حية من تلك الذكريات الصاخبة التي

ألهبت وجدان جيد فألهمته « بابه الضيق ».

من رسائلها الاخيرة

« . . . هنا لم يتغير شيء في الحديقة ، ولكن البيت يبدو خلواً من الحياة. ربما أدركت الآن لم كنت ارجوك ألا تأتي هذا العام. فأنني أرى في هذا التصرف كل الخير، واقول ذلك لنفسي كل يوم للترضية والتعليل اذ يشق علي أن أبقى طويلاً بعيدة عنك. وأحياناً أبحث عنك رغم ارادتي فأقطع القراءة وأدير برأسي . . . لادراك ماثلاً امامي.

أعود الآن للكتابة. الوقت ليل وكل من في البيت يغط في سبات حالم. أكتب اليك امام النافذة المفتوحة والحديقة تتنفس أريجاً وعطراً. هل تذكر ، أيام طفولتنا ، قولنا عندما كنا نسمع أو نشاهد بدعة من بدع الجمال « شكراً لك يارب على هذا الخلق » ؟ . وفي هذه الليلة تصاعدت من اعماق نفسي همسة تقول « شكراً لك يارب على هذه الليلة الجميلة الدافئة » . ومـا ان تمنيت لو تكون بقربي حتى أحسست بوجودك أمامي احساساً بلغ من القوة مـا جعلني أوقن من انتقاله اليك وشعورك به » .

*

« . . . كلما دنا يوم اللقاء رهبت انتظاري وازددت قلقاً وخشية. لقد بت اخاف قدومك الان بعد ان كنت اتمناه وارجوه ، فأصرف نفسي عبثاً عن التفكير بذلك اللقاء. وعندما أتخيلك تضغط على لولب الباب أو تصعد درجات السلم يتوقف قلبي عن الخفقان وأحس بالالم يفتته. لا تفكر ، جيروم ، بأنني سأستطيع ايضاً التحدث اليك . . . بل سيضمحل عند حضورك خيال الماضي بأسره. اغفر لي عجزي عن المزيد فانني اشعر بالحياة تنسل مني بلباقة. »

وفيما يلي آخر نفثات سطرتها « أليسا » قبل موتها مذكرات خاصة كانت كل ما ورثه جيد منها :

« . . . إلهي ، ادخل الى قلبي كراهية كل ما تبدو عليه دلائل الشر. مسكين جيروم ، لو يعلم انه لم يكن عليه احياناً الا ان يومئ الي باشارة صغيرة فقط ، وان تلك الاشارة كنت انتظرها منه غير مرة. طالما تمنيت على الله عندما كنت طفلة غرة ان اكون جميلة من اجله ، والآن اعتقد انني لم اهدف الى الكمال الا من اجله ايضاً ، على الرغم من ان هذا الكمال لا يبلغ الا بالبعد عنه . ايه يا رب ! ليس بين تعاليمك كلها ما هو أشد وقعاً على النفس من هذا الجهاد. ما أسعد الروح التي تتحد عندها الفضيلة بالحب. وكثيراً ما ساورني شك في وجود فضيلة غير الحب ، الحب الى أبعد حدوده واقصى امانيه. ولكن ، يا للاسف ، كثيراً ايضاً ما بدت لي الفضيلة مقاومة للحب عاذلة ذوي القلوب الدنفة . . . »

٣ ايار

« بع كل مـا تملك واعطه للبائسين. أفهم انه يجب عليّ ان اعطي البائسين هذا القلب الذي لا احتفظ به الا من أجل جيروم. أولست بذلك ممهدة له نفس السبيل الذي أسلك ؟ إلهي أعطني تلك الشجاعة. »

٢٤ تموز

« لقد رأيته ثانية ، انه هنا تحت هذا السقف ، وأرى الضياء الذي تشيعه نافذته على العشب. في الحين الذي أكتب هذه السطور اخاله ساهراً يفكر بي. انه لم يتغير كما قال ، وانا علي يقين من ذلك. فهل أتمكن من لقائه كما عزمت طمعاً في ان يسلبني حبه ؟ »

٤ ايلول

« إلهي ! انت تعلم انني بحاجة اليه كي أحبه . »

٢٠ ايلول

« إلهي امنحنيه كي امنحك قلبي. الهي ! أرنيه ثانية فحسب.

الهي ! لقد أزمعت على اعطائك قلبي ، فصلني بما يبغي حبي منك ، وثق بانني لن اجود بعد اليوم الا لك بما تبقى لدي من حياة.

الهي ! اغفر لي هذه الصلاة الحقيرة اذ ليس بوسعي ان افصل اسمه عن شفتي وان انسى عذاب قلبي.

الهي ! انني ادعوك اليّ فلا تتخل عني في محنتي وشقائي. »

٢١ ايلول

« ليس من جديد ، فالشمس توارت في جوف سماء صافية الاديم ، وانا انتظر ، لعلمي انه بعد قليل وعلى نفس هذا المقعد سأكون جالسة معه . . . يخيل اليّ انني بت اسمع نجواه. فكثيراً ما أحب الاصغاء اليه وهو يردد اسمي بين شفتيه . . . سيكون هنا ، وسأضع يدي بيده تاركة رأسي يتغلغل في صدره وبين منكبيه. وسأتنفس بالقرب منه. بالامس صحبت معي بعضاً من رسائله لاعيد قراءته ولكن تفكيري به لم يوفر لي حتى النظر الى تلك الرسائل الحبيبة. وقد تقلدت كذلك صليب « الاميتيست » الذي يحب والذي كنت احمله في عنقي كل أمسية من أمسيات صيف غابر. اود ان اعيد اليه ذلك الصليب اذ ما زلت أحلم منذ زمن بعيد بانه تزوج وبأنني ، انا عرافة ابنته الاولى ، قد وضعت ذلك العقد حول جيد « أليسا » الصغيرة. فلم كنت اعيا دائماً عن مخاطبته بذلك ؟ »

٢ تشرين الاول

« اواه ! لقد امحى كل شيء وانسل من بين ذراعي كالظل. لقد كان هنا ، نعم هنا حيث لم ازل أشعر بوجوده فأناديه ويداي تعبث في الظلمة بخيالات واشباح ، وشفتاي تبحث عنه عبثاً في دجنة رهيبة. وعييت عن صلاة ونوم فدلفت ثانية الى الحديقة القاتمة وقادني يأسي الى الباب الخارجي الذي خلفته وراءه ، فصرعته من حديد يحدوني جنون الامل ظناً مني انه عاد اليّ ثم ناديت وتلمست بيأس ما حواه الليل من أطياف . . . أواه ! لقد طوته المسافات . . . فرجعت الى غرفتي أكتب اليه وقد عزّ عليّ حداد النفس. »

٥ تشرين الاول

« أعدت قراءة مذكراتي قبل ان يحلو لي العبث بها. « انه غير خليق بذوي القلوب الكبيرة ان يشركوا الآخرين في متاعبهم ». أظنه لكلوتيلد هذا القول الجميل. وفي الوقت الذي هممت على ابادة هذه المذكرات شعرت بشيء يقبض على يدي محذراً كأنما يقول انها لم تعد ملكاً لي وان ليس لي من الحق ما يخولني حرمان جيروم منها انا التي لم اكتبها الا له. إلهي دع جيروم اذاً يكشف في قلقي وارتيابي عما يكنه له هذا القلب وما يؤمله فيه من ارتقاء الذروة التي عجزت انا عن بلوغها : ذروة الفضيلة. إلهي قد خطاي الى تلك الاعالي التي قصر سعيي عن ادراكها. »

١٥ تشرين الاول

لقد ادركت « أليسا » تلك الاعالي وبلغت ذروة الفضيلة ، فانتهت الى ربها من « الباب الضيق » عابرة ذلك النفق الصعودي الذي يرتفع بسالكه الى ممالك الرحمة حيث يرقد الازل ويجثم الجبروت. اما جيد فقد ظل واقفاً امام « البـاب » في نفسه نزاع يصطرع وفي خاطره حيرة تمور . .

رشيد شقير

كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه

دراسة ونقد وتحليل

بقلم خليل هنداوي
استاذ الادب العربي في تجهيز حلب

☆

التعريف بالمؤلف

هو ابو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ، قاضي الريّ في ايام الصاحب بن عبّاد ، جاب الارض ، وزار العراق والحجاز والشام . وكان شاعراً من المجيدين ، وكاتباً فحلًا ، وقد قرأ عليه الامام عبد القاهر الجرجاني كبير البلاغيين ، وهو صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ألفه تعقيباً على رسالة الصاحب ليحكم في قضية ابي الطيب بالعدل ، وليذكر ما له وما عليه .

التعريف بالكتاب

هذا كتاب من خير الكتب التي أخرجت في النقد في القرن الرابع الهجري ، يدل على مـا وصل اليه النقد البياني من نضج وامتداد ، وحق للنقد ان ينضج في هذا العصر بعد ان تلقى خير ما جاءت به السلائق العربية من شعر ونثر ، والمتنبي واحد من هؤلاء الشعراء الذين شغلوا عصرهم ، واختلف أمر الناس فيهم . منهم المتعصب له ومنهم ذو الهوى . اما الناقد الحق فهو يبتغي ان يضع احكامه على هدى وبصيرة ، وقد شاء صاحب الوساطة ان ينصف المتنبي ، ويرد على خصومه ، فألف وساطته هذه متناولاً فيها بعض أحكام له خاصة في النقد ، والشعر والادب . ومقبلًا على المتنبي يعرض جوانب منه متباينة ، بمحاسنه ومساوئه ، وابتكاراته وسرقاته واكبر مـا يميز الوساطة « هذه الاحكام البعيدة الشخصية التي استخرجها المؤلف ، ودل بها على ذوق مرهف مثقف ، وطبع لا يتكلف . وانا لنستعرض أحكامه العـامة في النقد ، ثم نأتي على أحكامه الخاصة في المتنبي » .

النقد والناقد

لكل ناقد مذهب يعمل به حين يقبل على آثار الناس يحكم لها او عليها . وطالما تنوعت هذه المذاهب ، وتبدلت هذه الطرائق بتبدل اذواق اصحابها . وغير مدفوع ان هذه المذاهب نفسها تتأثر بميول عصرها وتقتبس من منـازعه الثقافية . والنقد يبدأ ككل شيء بسيطاً ، قريب المدى ، ثم ينفسح افقه ، وتنفرج مسافاته ، وبينا هو يشتغل بالبيت الواحد ، او المعنى الواحد ، نراه يثب الى تحليل الاثر كله ، وصاحب الاثر مع اثره ، لانه متعلق به ، مرتبط ببيئته . وبينا هو يكتفي بنقد اللفظة والتركيب النحوي او اللغوي نجده يلاحظ الاسلوب الفني الذي ينعكس فيه المعنى بأجمل مايخرج به . لقد كان النقد — قبل القرن الرابع — يتصرف به رجال ليس لهم من الذوق الادبي شيء ، كأولئك اللغويين الذين حذقوا من اللغة اكثرها ، ولكن فاتهم الالتفات الى محاسن اساليبها . فأحكام هؤلاء احكام مردودة لا يعوّل عليها . لان مدار النقد انمـا (هو على استشهاد القرائح الصافية والطبايع السليمة ، التي طالت ممارستها للشعر ، فحذقت نقاده ، واثبتت عياره وقويت على تمييزه) وهـذا كلام صريح في ان الناقد ينبغي له ان يكون اديباً يشرك المبدع في ابـداعه ، والشاعر في افقه ، (والشعر لا يحبب الى النفوس بالنظر والمحاجة ، ولا يحلى في الصدور بالجدال والمقايسة ، وانمـا يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقربه منها الرونق والحلاوة . وقد يكون الشيء متقناً محكماً ، ولا يكون حلواً مقبولاً ، ويكون جيداً وثيقاً ، وان لم يكن لطيفاً رشيقاً . وقد تجد الصورة الحسنة والخلقة التامة مقلية ممقوتة واخرى دونهـا مستحلاة موموقة ، ولكل صناعة اهل يرجع اليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه احوالها) .

وفي هذا القول يضع للناقد وظيفة دقيقة ، همهـا ان تميز في الادب الجميل من القبيح ، لان هذا التمييز لا يتسنى الا لمن اوتوا هذه الخصائص !

وقد استند — في موضع آخر — في تعريف الناقد الذي يتصدى

لمحاكمة آثار الادباء، فقال: «ولستَ تعد من جهابذة الكلام، ونقاد الشعر، حتى تميز بين اصنافه وأقسامه، وتحيط علماً برتبه ومنازله؛ فتفصل بين السرق والنصب، وبين الاغارة والاختلاس وتعرف الالمام من الملاحظة، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرق فيه، والمبتذل، وبين المختص الذي حازه المبتدي، واحياه السابق فاقتطعه، فصار المعتدي مختلساً سارقاً، والمشارك له محتذياً تابعاً، وتعرف اللفظ الذي يجوز ان يقال فيه: أخذ، ونُقل. والكلمة التي يصح ان يقال فيها: هي لفلان دون فلان. فتى نظرت فرأيت ان تشبيه الحسن بالشمس والبدر، والجواد بالغيث والبحر امور متقررة في النفوس، متصورة للعقول، حكمت بأن السرقة عنها منتفية، وفعلت بين ما يشبه هذا ويباينه، وما يلحق به وما يتميز عنه، ثم اعتبرت ما يصح فيه الاختراع والابتداع فوجدت المعاني تصنفت الى صنفين: اما مشترك عام الشركة لا ينفرد احد منه بهم ويساهم عليه» وصنف سبق المتقدم اليه ففاز به، ثم تدوول بعده فكثر واستعمل فصار كالاول في الجلاء والاستشهاد، والاستفاضة على ألسن القراء، لحمى نفسه عن السرق كما يشاهد ذلك في تمثيل الطلل بالكتاب والبرد. والفتاة بالغزال في جيدها وعينيها..

فهو — هنا — يدور اكثر ما يدور حول تمييز المعاني المسروقة من المعاني المبتكرة. ولا عجب في ان تكون هذه الناحية أبرز النواحي، وفي ان يكون هذا التمييز اخص ما يتصف به الناقد، في عصر كثر فيه الضن بالادب والفن، حتى تطوع من لا يتطوع لحماية شعر الشاعر، واثر الناثر. وشبيه هذا التطوع بحفظ حقوق المؤلف لولا ان ركب مركب الغلو والشطط. فصاروا يأخذون على التهمة، ويحكمون على الاشارة. وازاء هذا الاسراف في السرق وجد اصحاب المقاييس ان يفرقوا بين السرقات، والا يكونوا أقل غيرة على اللاحق من السابق! وكادت مهمة الناقد تنحصر في هذه الناحية، حتى انه اصبح لا يبحث عن قدر المعنى وقيمته بالنسبة الى من طرقه، او اشار اليه، ولعمري ان مطلب صاحب الوساطة هو واحد من مطالب ينبغي للناقد ان يتصف بها.

وقد وردت — في تضاعيف الوساطة — جملة حسنة من النظرات النقدية الناضجة التي تدل على انصاف صاحبها، وعمق نظره، وحدة عقله. من هذه النظرات نظرات تتمشى مع احدث النظريات التي مرت على اقلام ارباب النقد في الادب الفرنسي. ولكنها نظرات بقيت غير مقيدة، ولا مصنفة. ومن الخير ان نصرح بها لنشير الى ما وصل اليه روح النقد في ذلك الجيل.

ا — اثر البيئة لقد كان احد الاسس التي بنى عليها النقادة الفرنسي (تين) طريقته النقدية اثر البيئة، وللبيئة تأثير في تكوين الشخص وتوجيه ادبه. وكأني بالجرجاني قد شعر بهذا الاثر، وفرق بين ما تنتجه البيئة الحضرية من رقة في الطباع وطراوة في الاساوب، وما تنتجه البيئة البدوية من جفوة وقسوة وجزالة. والناقد المنصف لا يطالب الا ما تطلبه طبيعة الشخص. «وقد كان القوم يختلفون في ذلك وتتباين فيه احوالهم، فيرق شعر احدهم ويصلب شعر الآخر. ويسهل لفظ احدهم ويتوعر منطق غيره، وانما ذلك بحسب اختلاف الطبايع وتركيب الخلق. فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة. وانت تجد ذلك ظاهراً في اهل عصرك وترى الجافي الجلف منهم كز الالفاظ معقد الكلام وعر الخطاب، حتى انك ربما وجدت الفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجته. ومن شأن البداوة ان تحدث بعض ذلك. (ومن بدا جفا) ولذلك تجد شعر عدي، وهو جاهلي، أسلس من شعر الفرزدق للازمة عدي الحاضرة وإيطانه الريف وبعده عن جلافة البدو وجفاء الاعراب»

وربما انتقل صاحب الوساطة الى ان الرقة تواتي موضوعاً دون موضوع كما نرى ذلك في غزل الجاهليين انفسهم. فان هذا الغزل يأتي رقيقاً رفيقاً خفيف الجرس على السمع. «وترى رقة الشعر اكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم، والغزل المتهالك. فان اتفقت لك الدماثة والصبابة، وانضاف الطبع الى الغزل فقد جمعت لك الرقة من اطرافها..» وعنده ان الذي ساعد العرب على تنقية اللغة، وهجر حوشيها ووحشيها، «حين كثرت الحواجز، ونزعت البوادي الى القرى وفشا التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه واسهله، واقتصروا على اسلس الالفاظ واشرفها. وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن وحتى خالطتهم الركاكة والعجمة، واعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الاخلاق فانتقلت العادة وتغير الرسم واحتذوا بشعرهم هذا المثال وترفقوا ما أمكن، وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الالفاظ، فصارت اذا قيست بذلك الكلام الاول يتبين فيها اللين فيظن ضعفاً فاذا افرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقاً، وصار ما تخيلته ضعفاً رشاقة ولطفاً، فان رام احدهم الاغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يرومه الا باشد تكلف، ومع التكلف المقت، وللنفس عن التصنع نفرة وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة

وذهاب الرونق واخلاق الديباجة ، وربما كان ذلك سبباً لطمس المحاسن. كالذي تجده في شعر ابي تمام فانه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالاوائل في كثير من الفاظه فحصل منه على توعير اللفظ .»
وهكذا نجد صاحب الوساطة يؤيد الرجوع الى الطبع الذي ألحت على تكوين اسبابه البيئة . واذا اراد المرء ان يعاند طبعه ، ويخرج به عن طبيعته عثر وتوعر ولم يأت الا بالمستهجن القبيح . وهذا الكلام خير ما قاله الاقدمون في تأثير البيئة في الاديب وطبعه ، وللجرجاني فضل القول فيه .

ويذهب الجرجاني الى أبعد من ذلك في بيان اثر البيئة وما تخلفه عند امة دون اخرى (لانه قد يكون في هذا الباب ما تتسع له امة وتضيق عنه اخرى ، ويسبق اليه قوم دون قوم لعادة او عهد او مشاهدة او مراس . كتشبيه العرب الفتاة الحسناء بتريكة النعامة ، ولعل في الامم من لم يرها ، وحمرة الخدود بالورد والتفاح وكثير من الاعراب من لم يعرفها . وكأوصاف الفلاة وفي الناس من لم يصحر ، وسير الابل وكثير منهم لم يركب .»

وكأن الجرجاني يريد ان يرينا ان الطبيعة نفسها تشترك في خلق التشابيه والمعاني بحسب بيئتها . ومن الانصاف ان نراعي في نقدنا هذه العوامل ، فلا نطلب الى البدوي المعاني الحضرية ، ولا الى الحضري المعاني البدوية ».

ب — بين القديم والجديد وأي ادب خلا من خصام عنيف متواصل بين قديمه وجديده ؟ في كل ادب تضطرم هذه النزعة ، ويهب انصار القديم ودعاة للجديد . وخير الامثلة على ذلك تلك الخصومة الشديدة في مطلع العصر العباسي .

والناقد لا بد ان يقف ازاء هذه العوامل متردداً . أيجنح الى القديم أم يجنح الى الجديد ؟ ولكن الناقد المنصف الذي يتوخى وجه الحق والحقيقة فهو ينصف القدماء كما ينصف المجددين ولا ترجح عنده الا كفة المجيد . وفي هذا الباب لا يفيد القديم قدمه ولا تضر المحدث حداثته « وليس يجب اذا رأيتني امدح محدثاً او اذكر محاسن حضري ان تظن بي الانحراف عن متقدم او تنسبني الى الغض من بدوي ، بل يجب ان تنظر في مغزاي فيه وان تكشف عن مقصدي منه ثم تحكم علي حكم المنصف المتثبت »
ونرى صاحب الوساطة يحمل حملة منكرة على هؤلاء الذين يقدسون القديم تقديساً اعمى لانه قديم ، ويمقتون الحديث — مهما بلغ من الروعة — لانه حديث . « وما اكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين ان احدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره فاذا نسب الى بعض اهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ونقض قوله ، ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً واقل مرزأة من تسليم فضيلة لمحدث والاقرار بحسن لمولد . ومن ذلك ما قيل عن اسحاق بن ابراهيم الموصلي انه أنشد الاصمعي قوله :

هل الى نظرة اليك سبيل فيبل الصدى ويشفى الغليل
ان ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال الاصمعي : « والله هذا الديباج الخسرواني ! لمن تنشدني؟ فقال اسحاق : انها لليلتها ، فقال لاجرم ان اثر التكلف فيها ظاهر .
وهذا مذهب في النقد من اقوم المذاهب ، لان التجرد اول شرط في الوصول الى الحق ! بل ربما وجدناه اكثر اكباراً للمحدث لانه « يقف محصوراً بين لفظ قد ضيق مجاله وحذف اكثره وقل عدده ، وحظر معظمه ومعان قد اخذ عفوها وسبق الى جيدها ».

ج — وللجرجاني نظرة طالما ترددت في الاوساط الادبية وشغلت العقول . تتعلق باتصال الادب بالاخلاق ، وهل الادب يرفع من شأنه ان يعمل على رفع الاخلاق ، ويحط من شأنه ان ينصرف عن نصرتها . والادباء في هذا يختلفون بحسب نزعاتهم واهوائهم . ولكن الذي يبدو جلياً ان الادب لا يقصد الاخلاق وانما يريد ان يخرج صوره البريئة خالصة للفن والجمال ، وقد تلائم هذه الصور النزعة الاخلاقية او قد لا تلائمها . فلا ترفع هذه الملاءمة منها شيئاً ولا يخفض عدم ملاءمتها منها شيئاً . لان جل ما يطلب فيها ان تكون ملائمة للذوق والمثل الجمالية في الادب . وعلى هذا جرى جل الادب العالي ومنه الادب العربي الذي يطفح بصور كثيرة مغايرة للاخلاق . لان النظرة الفنية مقدمة على النظرة الخلقية في الادب .

ويظهر ان الجرجاني كان ملماً بهذه النظرية ، ومتشيعاً لها ، فهو « يعجب ممن ينتقص المتنبي ويغض من شعره لابيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة . ويرى ان لو كانت الديانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب ان يمحى اسم ابي نواس من الدواوين ويحذف ذكره اذا عدت الطبقات ، ولكان اولاهم بذلك اهل الجاهلية ومن تشهد الامة عليه بالكفر . ولكن الامرين متباينان — والدين بمعزل عن الشعر ! »

د — واذاً كيف تحكم على الرجل ؟ (يرى ان ليس من حكم مراعاة الآداب ان تعدل لاجله عن الانصاف ، بل تتصرف على

حكم العدل كيف صرفك فتنتصف تارة ، وتعتذر اخرى وتجعل الاقرار بالحق عليك شاهداً لك اذا انكرت ، فانه لا حال اشد استعطافـاً للقلوب المنحرفة من توقفك عند الشبهة اذا عرضت ، والحكم على نفسك اذا تحققت الدعوى عليها . . . وهو بعد ان استعرض الادباء الذين تصدوا المتنبي وجدهم فئتين : من مطنب في تقريظه او عائب يروم ازالته عن مرتبته وكلا الفريقين إما ظالم له او للادب فيه . والميزان الحق عنده ان للفضل آثاراً ظاهرة ، وللتقدم شواهد صادقة . فمتى وجدت تلك الآثار وشوهدت هذه الشواهد فصاحبها فاضل متقدم . فان عثر له من بعد على زلة انتحل له عذر صادق . فان أعوز قيل زلة عالم – وقل من خلا منها – وأي الرجال المهذب » . وفي الحق ان الذهاب هذا المذهب في النقد يعد من أصدق الاحكام الصادقة ، المخلصة في النقد . اذ ليس على النـاقد « ان يستعجل بالسيئة قبل الحسنة ، ولا يقدم السخط على الرحمة . وان فعلت فلا تهمل الانصاف جملة ، وتخرج عن العدل صفراً » . وليس من شرايط النصفة ان تنعى على ابي الطيب بيتـاً شذ ، وكلمة ندرت وتنسى محاسنه وقد ملأت الاسماع ، وروائعه وقد بهرت الابصار .

هـ – وقد اراد الجرجاني ان يبين الشعر والشاعر ، بان الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من اسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان . وكأن هذا التعريف ينفرد به الجرجاني وحده ، ونراه آثر تعريفاً عاماً للشعر ، فجعله نتاج الطبع والرواية ، والذكاء الذي يرفدهما ، ثم تكون الدربة من وراء ذلك تساعد على تمكين الشعر في القريحة . والشاعر عنده مخلوق لا يكفيه ان يكون أعلم الناس باللغة واكثرهم رواية للغريب واحفظهم للدواوين المروية والكتب المصنفة من شعر فحل وخبر صحيح ولفظ رائع . اذا لم يمنحه الله طبعاً صحيحاً وذهناً ثاقباً وقريحة نافذة . وهو اول من ادرك ان الشاعر ينبغي ان يجمع بين الطبع والصنعة . (اذ من حق الشعر ان يختص بفضل تهذيب ويفرد بزيادة عنـاية فاذا اجتمعت تلك العادة والطبيعة وانضاف اليها التعمل والصنعة خرج كما تراه فخماً جزلاً قوياً متيناً » ولكنه قد يجاري في بعض نظراته نظرات اهل عصره كأن يرى ان الشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهمـا الخاتمة فانها المواقف التي تستعطف اسماع الحضور وتستميلهم الى الاصغاء ، ولم تكن الاوائل تخصها بفضل مراعاة . . . وفي النظر الى القصيدة هذه النظرة يدل على انه لا يعتبر القصيدة وحدة متناسبة الاجزاء ، مشدودة الاطراف . يجب الاعتناء بكل جزء منها دون النظر الى استهلال او تخلص . ولكن الجرجاني حكم على القصيدة التي كانت في عصره . ولم ينظر الى القصيدة التي وصفها الحاتمي . . . (بانها وحدة لا تتجزأ) ومثل القصيدة مثل الانسان في اتصال بعض اعضائه ببعض .

والجرجاني يفرق بين المبدع وسواه في تناول المعاني المشتركة « حين يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصفة الشعر ، فتشترك الجماعة في الشيء المتداول ، ويتفرد احدهم – وهو المبدع – بلفظة تستعذب او ترتيب يستحسن ، او تأكيد يوضع موضعه ، او زيادة اهتدى لها دون غيره . فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع » .

وهذه لفتة – لعمري – من اللفتات العالية في النقد . اذ يتوهم البعض من المتقدمين في النقد – ان الابتكار معناه خلق الاشياء الجديدة من العدم – كما فعل صاحب المثل السائر حين أحصى معاني ابي تمام المخترعة وانما التجديد في المعاني ان يأتي المبدع لهذه الاشياء المشتركة ، ويكسوها لباساً خاصاً من شخصيته او ابداعه . فاذا به يتفرد بهذا المعنى ويصبح من مخترعاته !

وللجرجاني فهم للادب يدل على ذوق ، فهو يسعى الى التسهيل في الادب ، وينفر من التعقيد . وهو اذا ذكر التسهيل نبهك الى انه لا يريد بالسمح السهل ذلك الضعيف الركيك ، ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنث ، بل يريد النمط الاوسط ، مـا ارتفع عن الساقط السوقي ، وانحط عن البدوي الوحشي ، وربمـا ذهب الى ابعد من ذلك في وضع القواعد للنظم والكتابة ، اذ لا يأمرك باجراء انواع الشعر كله مجرى واحداً . . . بل ارى ان تقسم الالفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ، ولا هزلك بمنزلة جدك بل ترتب كلا مرتبته وتوفيه حقه ، فتلطف اذا تغزلت وتفخم اذا افتخرت ، فوصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ، فلكل واحد من الامرين نهج هو املك به وطريق لا يشاركه الآخر فيه . وهذا ليس بمقصور على الشعر دون الكتابة ولا بمختص بالنظم دون النثر . وملاك الامر عنده ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به . وليس يعني بهذا كل طبع ، بل المهذب الذي قد صقله الادب وشحذته الرواية وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصور

امثلة الحسن والقبح!

وللجرجاني مقياس خاص في المفاضلة بين الشعراء، وهو مقياس يتخذه من اذواق العرب. « وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته. وتسلم السبق فيه لمن وصف فاصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سواير امثاله، وشوارد ابياته. ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض. » والجرجاني هنا يفهم الشعر كما يفرضه الذوق، خالياً من التكلف البغيض، والتصنع الممقوت الذي جعل من الشعر دمية تكاد تخنقها ازياؤها، وتحيلها اصباغها عن لونها. « على ان شيئاً من التصنيع كان يقع خلال قصائدها ولكن على غير تعمد وقصد. اما المحدثون فقد جعلوا التصنيع قدوتهم، وموه البديع، فكان منهم المحسن والمسيء والمحمود والمذموم والمقتصد والمفرط وملاك الامر ان تقبل من الاستعارة ما اشبه قول زهير: (وعري أفراس الصبا ورواحله) او لبيد (اذا اصبحت بيد الشمال زمامها) وملاك الاستعارة تقريب الشبه، ومناسبة المستعار له للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينها منافرة ولا يتبين في احدهما اعراض عن الآخر. وقد يحمل الجرجاني مقياس مفاضلته حيناً على القصيدة الواحدة كما فعل في مقارنة ابن الرومي مع المتنبي... (ونحن نستقري القصيدة من شعر ابن الرومي وهي تناهز المائة او تربي او تضعف فلا نعثر فيها الا بالبيت الذي يروق او البيتين، ثم قد تنسلخ منه قصائد وهي واقفة تحت ظلها، جارية على رسلها، لا يحصل منها السامع الا على عدد القوافي وانتظار الفراغ، وانت لا تجد لابي الطيب قصيدة تخلو من ابيات تختار، ومعان تستفاد والفاظ تروق وتعذب، وابداع يدل على الفطنة والذكاء، وتصرف لا يصدر الا عن غزارة واقتدار) وقد كان بودنا ان يكون الجرجاني اكثر فهماً لابن الرومي، ومرد هذا الحكم الجائر عليه الى ان ابن الرومي ليس من طلاب البيت الواحد، وانما هو من طلاب الصورة المستقلة التي يعمل فيها الخيال والفن حتى تأتي صورة كاملة متناسقة الاجزاء. ولذلك لم يقدره القدماء حق قدره. ويعود الجرجاني يبدي — تساهله — في معرض المفاضلة لانه لا فضل خاص من زلل، ولا احسان صفا من كدر! وللجرجاني ذوق مرهف، عميق في تمييز الجمال الفني في الشعر، بل نراه يميل احياناً الى البحث بنفسه — فعل استاذه الجاحظ في الحيوان — فلو قرأت قول امرىء القيس:

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي ... بناظرة من وحش وجرة مطفل

وقابلته بقول عدي بن الرقاع:

وكأنها بين النساء اعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم

فرأيت اسراع القلب الى هذين البيتين، والمعنى واحد، وكلاهما خال من الصنعة، بعيد عن البديع الا ما حسن به من الاستعارة اللطيفة التي كسته هذه البهجة. هذا وقد تخلل كل واحد منهما من حشو الكلام ما لو حذف لاستغني عنه — كوحش وجرة او جآذر جاسم —

ولا تلتفت الى ما يقال في وجرة وجاسم، وقد رأيت ظباء جاسم فلم ارها الا كغيرها من الظباء، وسألت من لا احصي من الاعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلاً على غيرها.. واما ما تمم به عدي الوصف واضافه الى المعنى المبتذل نقوله:

وسنان ايقظه النعاس فرنقت ... في عينه سنة وليس بنائم

فقد زاد به على كل من تقدم وسبق بفضله جميع من تأخر، ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له، وحظر على الشعراء ادعاء الشرك فيه لم أرني بعدت عن الحق ولا جانبت الصدق!

وهاك الآن مثلاً في المفاضلة بين قطعتين، احداهما يعمل فيها التصنيع عمله، والاخرى تعتمد على البساط:

قال ابو تمام:

دعني وشرب الهوى يا شارب الكاس ... فانني للذي حسيته حاسي
لا يوحشنك ما استسمجت من سقمي ... فان منزله من احسن الناس
من قطع اوصاله توصيل مهلكتي ... ووصل الحاظه تقطيع انفاسي
متى أعيش بتأميل الرجاء اذا ... ما كان قطع رجائي في يدي ياسي

فلم يخل بيت منها من معنى بديع، وصنعة لطيفة. طابق وجانس واستعار واحسن. وهي معدودة في المختار من غزله لانها جمعت على قصرها فنوناً من الحسن واصنافاً من البديع ثم فيها من الاحكام والمتانة والقوة ما تراه. ولكني ما اظنك تجد له من سورة الطرب وارتياح النفس ما تجده لقول بعض الاعراب:

اقول لصاحبي والعيس تهوي ... بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ... وريا روضه غب القطار
وعيشك اذ يحل القوم نجداً ... وانت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا ... بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن فخير ليل ... وأقصر ما يكون من النهار

فهو كما تراه بعيد عن الصنعة، فارغ الالفاظ، سهل المأخذ، قريب التناول — وهكذا نجد الجرجاني يفضل السهل على المركب والمطبوع على المصنوع، والذي يرتاح اليه الذوق على الذي يجهد فيه العقل. ولعمري ان هذا المقياس حق في الادب يسود حكم الذوق على كل حكم.

بل ارى الجرجاني كان افطن من استاذه الجاحظ وابعد مدركاً في المسائل الادبية: ورث عنه طريقته فكان آمن منه على استخدامها واحسن تصرفاً. فهو يستعمل طريقة البحث بالاختبار حيناً، وبالعقل حيناً. أليس الجاحظ من راح يزعم (ان الشعر العربي حديث ميلاد السن)؟ وهذا زعم يظهر العقل والنقل مواضع الخطأ فيه. أما الجرجاني فهو يرى في اشعار القبائل الابيات تنسب الى الرجل المجهول الذي لم يرو له غيرها، ولا يعرف له اسم الا بها. وكأن النفس تشهد ان مثلها لا يكون باكورة الخاطر، ولا تسمح بها القريحة الا بعد الدربة وطول الممارسة. ومن ذا يسمع قول الهذلي:

ابو مالك قاصر فقره ... على نفسه ومشيع غناه
اذا سدته سدت مطواعة ... ومها وكلت اليه كفاه

فيشك انها لم تندر فلتة، وتصدر بغتة. وان لها مقدمات سهلت سبيلها، واخوات قربت مأخذها.

ح — السرقة

يقول الجرجاني في انها داء قديم وعيب عتيق وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه ثم تسبب المحدثون على اخفائه بالنقل والقلب وتغيير المنهاج والتركيب وتكلفوا جبر ما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد والتعريض في حال والتصريح في اخرى، والاحتجاج والتعديل. فصار احدهم اذا اخذ معنى اضاف اليه من هذه الامور ما لا يقصر معه عن اختراع وابداع مثله. وقديماً كان الشعراء يتهم بعضهم بعضاً بالسرقة فهذا جرير يدعي على الفرزدق بقوله:

سيعلم من يكون ابوه فينا ... ومن عرفت قصائده اجتلابا

وهذا الفرزدق من نفسه يرد التهمة على جرير بقوله:

ان استراقك ياجرير قصائدي ...

والقدماء انفسهم كانوا يتهمون كل شاعر اذا وافق شعره بعض ما قيل او اجتاز منه بابعد طرف فيقولون عنه سرق بيت فلان وأغار على قول فلان. ولعل ذلك البيت لم يقرع قط سمعه ولا مر بخلده.. كأن التوارد عندهم ممتنع واتفاق الهواجس غير ممكن. وهنا نرى الجرجاني يدافع عن المعاني التي تتوارد في الخواطر اذا ثبت صدق صاحبها وتقدمه في الشعر، بل يذهب الى ابعد من ذلك فيجعل السرقة في بعض المرات ممدوحة اذا استطاع السارق ان يكسو المعنى ثوبا جديداً ومتى جاءت السرقة عند هذا المجيد لم تعد مع المعايب ولم تحص في جملة المثالب وكان صاحبها بالتفضيل احق وبالمدح والتزكية اولى، مثل ذلك قول ابن المعتز:

بياض في جوانبه احمرار ... كما احمرت من الخجل الخدود

وقول ابي سعيد المخزومي من بعده:

والورد فيه كانما اوراقه ... نزعت ورد مكانهن خدود

فهو لم يزد على ذلك التشبيه المجرد لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق فصرت اذا قسته الى غيره وجدت المعنى واحداً ثم احسست في نفسك عنده هزة ووجدت طربة تعلم منها انه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها.

وليست السرقة عند الجرجاني مقصورة على الاشياء الظاهرة وانما يكون هم الناقد في تتبع الابيات المتشابهة والمعاني المتناسخة وان يطلب الاغراض والمقاصد طلبه الالفاظ والمعاني والظواهر. وهو في هذا الباب متحرز جداً لعلمه ان الذي يضع نفسه هذا الموضع يحتاج الى انعام الفكر وشدة البحث وحسن النظر والتحرز من الاقدام قبل التبين والحكم الا بعد الثقة. وقد يغمض حتى يخفى وقد يغمض منه الواضح الجلي على من لم يكن مرتاضاً بالصناعة متدرباً بالنقد. وقد تحمل العصبية فيه العالم على جحد المشاهدة والحق ولا يريد التعرض للفضيحة والاشتهار بالجور والتحامل، على انه في الوقت نفسه يريد ان يعتذر عن هؤلاء الشعراء الذين يخيل الينا انهم سرقوا. لان المتقدمين قد استغرقوا المعاني وسبقوا اليها واتوا على معظمها ولا يحصل المحدث الا على بقايا اما ان تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها او لبعد مطلبها وتعذر الوصول اليها. ومتى اجهد احدنا نفسه واعمل فكره واتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً ونظم بيت يحسبه فرداً مخترعاً ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطر ان يجده بعينه او يجد له مثالا يغض من حسنه ولهذا السبب آثر الجرجاني ان يحظر على نفسه ولا يرى لغيره بت الحكم على شاعر في السرقة. ولكنه اذا وجد في شعر واحد معاني كثيرة يجدها لغيره حكم بان فيها مأخوذاً لا يثبت بعينه ومسروقاً لا يتميز له من غيره. فيقول: قال فلان كذا. فعل ذلك حتى يغنم فضيلة الصدق ويسلم من اقتحام التهور. ثم يأتي الجرجاني ببعض ما ادعي على ابي الطيب فيه السرقة وما أضيف اليه مما عثر به. قال أبو تمام:

ولو لم يكن في كفه غير نفسه ... لجاد بها، فليتق الله سائله

وقال ابو الطيب:

يا ايها المجدى عليه روحه ... اذ ليس يأتيه لها استجداء
احمد عفاتك لا فجعت بفقدهم ... فلترك ما لم يأخذوا اعطاء

فيجد بيت أبي تمام اصلح لفظا واصح سبكاً، وزاد المتنبي بقوله انه يجدى عليه روحه ولكن في اللفظ قصور والاول نهاية في الحسن

قال ابو تمام :

لو حار مرتاد المنية لم يجد ... الا الفراق على النفوس دليلا

وقال ابو الطيب :

لولا مفارقة الاحباب ما وجدت ... لهـا المنايا الى ارواحنا سبلا

لكن شعر ابي تمام اروع وابدع. قال الاعشى :

لو أسندت ميتاً الى نحرها ... عـاش ولم ينقل الى قابر

وقال ابو الطيب :

فذقت مـاء حياة من مقبلهـا ... لو صاب ترباً لاحيا سالف الامم

فبيت الاعشى أخف لفظاً وأبعد عن المبالغة. قال ابو تمام :

غربته العلى على كثرة الاهل ... فاضحى في الاقربين جنيبا

فليطل عمره فلو مات في مر ... و مقيماً بهـا لمـات غريبا

وقال ابو الطيب :

وهكذا كنت في اهلي وفي وطني ... ان النفيس غريب حيثما كانا

وبيت المتنبي اجود واسلم ، وقد اساء ابو تمـام بذكر الموت في المديح فلا حاجة اليه والمعنى لا يختل بفقده ، على ان الشطر الثاني من بيت المتنبي يكاد يكون مثلاً مستقلاً بنفسه قال ابو تمام :

وكانت وليس الصبح فيها بابيض ... وأمست وليس الصبح فيها باسود

وقال المتنبي :

فالليل حين قدمت فيها ابيض ... والصبح منذ رحلت عنها اسود

وهذه سرقة ظاهرة باللفظ والمعنى وقال ابو تمام :

ومهما يكن من وقعة بعد ، لا يكن ... سوى حسن ممـا فعلت مردد

والمتنبي يقول :

أجزني اذا أنشدت شعراً فانما ... بشعري اتاك المادحون مرددا

قال ابو تمام :

لقد بث عبدالله خوف انتقامه ... على الليل حتى ما تدب عقاربه

فنقله ابو الطيب فقال :

تصد الرياح الهوج عنها مخافة ... وتفزع فيها الطير ان تلقط الحبا

قال ابو نواس :

وان جرت الالفاظ منا بمدحة ... لغيرك انساناً فانت الذي نعني

وقال المتنبي :

وظنوني مدحتهم قديماً ... وانت بمـا مدحتهم مرادي

قال ابو تمام :

قريب الندى نائي المحل كأنه ... هلال قريب النور ناء منازله

وقال البحتري :

كالبدر أفرط في العلو وضوءه ... للعصبة السارين جد قريب

وقال ابو الطيب :

كالشمس في كبد السماء وضوءها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغاربـا

وقال دعبل :

لا تأخذا بظلامتي احـداً ... قلبي وطرفي في دمي اشتركا

وقال ابو الطيب :

وانا الذي اجتلب المنية طرفه ... فمن المطالب والقتيل القاتل

ط — ولا يتركنا الجرجاني قبل ان يبين لنا غايته من تأليف كتابه « الوساطة » فهو يريد ان يقتصر على حسن التبليغ وحسن التأدية وتقريب العبارة « وليس تعنينا الشهادةلابي الطيب بالعصمة ، ولا مرادنا ان نبرئه من مفارقة زلة ، وان غايتنـا فيما قصدناه ان نلحقه بأهل طبقته ، ولا نقصر به عن رتبته ، وان نجعله رجلاً من فحول الشعراء ، ونمنعك عن احباط حسناته بسيئاته ولا نسوغ لك التحامل على تقدمه في الاكثر بتقصيره في الاقل ».

وتراه يضرب لذلك مثلا شعراء لم يخلوا من سيئات ، ولكنهم لم يهضم حقهم ، ولم تنحط منزلتهم . (ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعراً لوجب ألا يرى لابي تمام بيت واحد ، فانا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت او بيتين قد وفر من التعقيد حظها ، وأفسد به لفظها ، ولذلك كثر الاختلاف في معـانيه ، وصار استخراجها باباً منفرداً ينتسب اليه طائفة من اهل الادب ، وصارت تتطارح في المجالس مطارحة ابيات المعاني وألغاز المعمى »

ي — كيف يفهم الجرجاني الادب ?

ولعل أبرز ما يتصف به هذا النـاقد هو الذوق الذي جعله يصل في فهم الادب الى الذروة العليا ، ولم يكن مقلداً او تابعاً في ما اعتقده ، وانمـا كان متذوقاً بنفسه ومدركاً لمعنى الادب ! والادب عنده — كما مر — ذوق خاص ، وميل لا يستجلب بالحاجة والدليل . ومن قال ان الجمـال يتبع قواعد علماء الجمال . . . ورأيي ان الجمال يخلق القاعدة ، امـا القاعدة فلا تخلق الجمال . . . كذلك الامر في الفن والادب ، نحن نتذوقها ، ونرتاح اليها ثم نبني قواعد نعلل بها انفسنا حول هـذا الارتياح . ولكن هذه القواعد تبقى مقيدة بهذه النـاحية التي خرجت منها . . . واليك رأي الجرجاني في روح الادب « وانمـا الكلام اصوات محلها من الاسماع محل النواظر من الابصار . وانت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن . . . ثم تجد اخرى دونها وهي أحظى بالحـلاوة ، وادنى الى القبول . . . ثم لا تعلم — وان قايست واعتبرت — لهذه المزية سبباً . ولو قيل لك كيف صارت هذه الصورة — وهي مقصورة عن الاولى في الاحكام والصنعة ، وفي الترتيب والصبغة — أحلى وارشق . . لاقت السائل مقام المتعنت الجاهل ، ولكن اقصى ما في وسعك ان تقول « موقعه في القلب ألطف . . . » وقد يحاجك بظاهر تحسه النواظر وانت تحيله على

باطن تحصله الضمائر — كذلك الكلام منثوره ومنظومه تجد منه المحكم الوثيق، والجزل القوي، والمصنع المحكك، والمنمق الموشح، قد هذب كل التهذيب، ثم تجد فؤادك عنه بنفرة »

وله نظرة ثاقبة في المختل المعيب والفاسد المضطرب، وعيبه اما ان يكون ظاهراً يشترك في معرفته كفساد اللحن والخطأ من ناحية الاعراب واللغة. او باطناً غامضاً يوصل الى بعضه بالرواية والدراية، ويحتاج في كثير منه الى دقة الفطنة، وصفاء القريحة، ولطف الفكر، وبعد الغوص. وملاك ذلك كله، صحة الطبع وادمان الرياضة. واقل الناس خطأ في هذه الصناعة من وقف عند سلامة الوزن والاعراب واللغة ». ثم كان همه ان يجد لفظاً مروقاً وكلاماً مزوقاً ... ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب واضطراب النظم وسوء التأليف، وهلهلة النسج، ولا يقابل بين الالفاظ ومعانيها، ولا يرى اللفظ الا ما ادى اليه المعنى، ولا الكلام الا ما صور له الغرض، ولا الحس الا ما افاده البديع، ولا الرونق الا ما كساه التصنيع ».

ومما التفت اليه الجرجاني في ادب عصره — داء المبالغة — وهو داء كان ولا يزال منتشراً في ادبنا، ادى الى احالة المعاني، وبعدها عن الواقع، « واما الافراط فمذهب عام في المحدثين، وموجود كثير في الاوايل. والناس فيه مختلفون فمستحسن قابل، ومستقبح راد، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء. فاذا تجاوزها اتسعت له الغاية وأدته الحال الى الاحالة. وانما الاحالة نتيجة الافراط وشعبة من الاغراق، ومن كان كذلك آل الى النقص والذم »

وهل أدل على هذا الذوق المرهف من اعتقاده بأن عالم المعاني يقصر اللسان عن التعبير عنه « وربما قصر اللسان عن مجاراة الخاطر، ولم يبلغ الكلام مبلغ الهاجس، ورب مسألة اجد بيانها في قلبي ولكن ليس ينطلق به لساني » وهذه حقيقة نفسية تتفق مع النظرية الفنية الحديثة القائلة بان اللغة كثيراً ما تعجز عن تفسير الخاطر، واذا عبرت فانما تعبر عن جانب قد يكون أحقر الجوانب منه. وكما قال بعضهم « قد يكون الشعر الذي قاته بليغاً، ولكن الابلغ منه دائماً هو ما لم ينطلق به لساني، ولم يصوره بياني ».

الحكم على الحكم

يظن القارىء بعد اطلاعه على هذه الافكار الصائبة العميقة في النقد انه سيجد نفسه امام فصل شعري تحليلي قوي عن المتنبي، ولكن الجرجاني لم يوفق في هذا، ولم يعالج شعر المتنبي بمثل ما وعد به. وجل ما في الامر انه انتقى للمتنبي مختارات من شعره ادعى فيها انها من حسنات ديوانه، وجمع بعض امثاله ومعانيه منفردة وفيها الغث والسمين، واشار الى سخيف المتنبي، وبعض ما ادعيت فيه السرقة.

وهو على الجملة ينظر في خصوم المتنبي فيجد ان خصمه فريقان: احدهما يعم بالنقص كل محدث ولا يرى الشعر الا القديم الجاهلي. وانما انت احد رجلين: اما ان تدعي له الصنعة المحضة فتلحقه بأبي تمام، وتجعله من حزبه، او قد تدعي له فيه شركاً، وفي الطبع حظاً. فان ملت به نحو الصنعة صيرته في جنبة مسلم بن الوليد وان وفرت قسطه من الطبع عدلت به قليلاً نحو البحتري، وانا ارى لك اذا كنت متوخياً للعدل مؤثراً للانصاف، ان تقسم شعره فتجعله في الصدر الاول تابعاً لابي تمام، وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم ».

هذا هو حكم الجرجاني الذي جاء ينتصف المتنبي، وكأني به ذلك الصديق الذي يوجه سهمه نحو اعداء صاحبه، فلا يصيب الا مقتل صاحبه. وهذا الحكم مقتلة لعبقرية المتنبي التي — بعد اكبر فضلها وميزتها — انها لم تتبع قانون احد، وهو الذي كان ينقض على المعاني، فينتشل منها ما يريد، لا يبالي كيف سقط !! ولعل هذا التوزيع فيه نفع، اذ يدل على ان المتنبي فيه محاسن غيره من شعراء كأنهم اجتمعوا فيه دون ان يجتمع فيهم! وقد يكون المتنبي في اول عهده مقلداً لابي تمام في معانيه، ولمسلم في صناعته ولكن هذا العهد لا يحسب في حياة المتنبي. وانما المتنبي شاعر مزيته الاولى انه خلق ليُحكى لا ليحكي، وليكون صوتاً لا صدى !

وكان على الجرجاني ان يحلل تأثير ابي تمام ومسلم في شاعرية المتنبي، ولكنه لم يفعل، على ان هذا لم يمنع الجرجاني ان ينظر الى المتنبي اكبر شاعر له بكل سيئة عشر حسنات، وبكل نقيصة عشر فضائل (١). ومن حقه ان يقول:

انام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

حلب خليل هنداوي

---

(١) ثم يعتمد الجرجاني على الاستشهاد بشيء من سخيف شعر المتنبي، وبعض مطالعه الحسنة المبتكرة، والمستكرهة، وبعض سوائر امثاله.

جنان

*

ابعــدي كأسكِ عني انا لا أشربُ خمرا
وانزعي ثغركِ عن ثغري فـأن الروح سكرى

قرّبي روحــكِ من روحي وهــاتِ حـدثيني
عن ليـالي الحب نشوى من دموعي وانيني

هــام في الحب فؤادي ليلةَ ذقتُ منـاهــا
آه ! ! لو يرجع لي المـاضي فأجاو مشتهاهـا

قربي ثغركِ صبي شفتي في شفتيكِ
واسمعي قلبي يهفو خافقـاً شوقـاً اليكِ

قربي ثغركِ هـاتِ قبلةً تجاو الليـالي
إن امت ظمـآن لفيني بأفيـاء الدوالي

اسكبي روحكِ في روحي وضميني لصدرك
واملأي بالآه اجواني ولفيني بشعرك

حـدثي الاجيـال عنـا عن هوانا المستباحِ
عن ليـالي الحب نجاوهـا بأنغـام الصباحِ

آه لو ادرك بعـد الموت يا ليل الامـاني
فيعيـد القبر للدنيـا وللقلب (جنـاني)

حماه — محمود عيسى

والد سيمون

★

للقاص الفرنسي: غي دي موبسان

نقلها الى العربية: عبد الغني العطري

عندما نشر « موبسان » مجموعة اقاصيصه المسماة: « La Maison Tellier » لقيت من النجاح حظاً كبيراً وعدها الناقدون بعد ذلك في الطبقة الاولى من اقاصيصه الروائع. وقد خصها « رينه دومسنيل » مع قصة Boule de Suife بالدرس العميق. وربما كان من الطريف الاشارة الى ان هذه المجموعة كانت الثمرة الاولى من نتاج موبسان القصصي، فكان ظهورها في هذه القوة والبراعة موضع دهشة كثير من معاصريه واعجابهم. . . من هذه المجموعة الخالدة ننقل اليوم لقراء « الاديب » هذه الطرفة الرائعة. وهي وحدها دليل بين على عبقرية صاحبها الفذة في الاقصوصة.

◆

قصة

انتهى جرس الغداء من الرنين، وفتح باب المدرسة، فأسرع الاولاد اليه، وهم يتدافعون كي يخرجوا جميعاً بأسرع وقت. غير انهم بدلاً من ان يفترقوا ويذهبوا لتناول غدائهم، شأنهم في كل يوم، وقفوا على بعد خطوات، والتفوا زرافات زرافات، وأخذوا يتهامسون في اهتمام.

في صباح ذلك اليوم كان الطفل سيمون بن بلانشوت قد دخل المدرسة للمرة الاولى.

لقد سمع جميع الاولاد في منازلهم بعض افراد عائلاتهم يتحدثون عن بلانشوت، وبالرغم من ان الناس كانوا على العموم يحسنون استقبالها والترحيب بها، فقد كانت الامهات فيما بينهن يعاملنها في شيء من الشفقة والعطف، المشوبين ببعض الاحتقار. هذا الاحتقار الذي تسرب الى الاطفال الصغار، دون ان يدركوا السبب الحقيقي لذلك. اما سيمون فهم لا يعرفونه ابداً، لانه لم يكن ليخرج من منزله فيلعب معهم في شوارع القرية، او على ضفاف النهر. وفي كثير من السرور والدهشة تناقلوا هذا الخبر « الخطير » — الذي جاء به غلام في الرابعة او الخامسة عشرة من عمره، يبدو من ملامحه انه مطلع على جلية الامر، لانه كان يغمز بعينيه في خبث ومكر ودهاء — :

— أتعرفون انه ليس لسيمون والد ؟

وظهر ابن بلانشوت بعد قليل على عتبة المدرسة، وهو طفل في السابعة او الثامنة من عمره، شديد نظافة الثياب، تعلو محياه صفرة خفيفة، ومسحة من الجزع والحياء، مع شيء من الخجل والارتباك.

وبينما كان يهم بالعودة الى امه كانت جماعات من رفاقه الصغار تتهامس وتقذفه بوابل من نظراتها الخبيثة الماكرة، تلك النظرات التي تنبيء بأنهم يعدون مكيدة مروعة. ثم اخذوا يلتفون حوله ويحيطون به من كل جانب، حتى جعلوه اخيراً ضمن دائرة لا منفذ لها ولا مخرج. وظل في مكانه وسط هذه الحلقة، وقد روعته المفاجأة، وأخذت الدهشة منه كل مأخذ، دون ان يدري ما هم صانعون به. اما الفتى الذي حمل الى رفاقه هذا النبأ، فقد ثمل بخمرة النجاح الذي جاءه بنبئه هذا، لذا دنا من سيمون الطفل وسأله:

— ما اسمك انت ياغلام ؟

فأجاب: سيمون.

فقال له: سيمون . . . فحسب ؟ فأعاد الطفل، وهو اشد ما يكون ارتباكاً وخجلاً: — سيمون.

فصاح به الفتى: — سيمون . . . ليس هذا اسماً كافياً . . . يجب ان تدعى سيمون وشيئاً آخر! فأعاد الطفل قوله للمرة الثالثة، وقد التمعت عيناه بالدمع وهم بالانفجار باكياً:

— اني ادعى سيمون. فأخذ الصبية الاشقياء يضحكون ويقهقهون فقال لهم الفتى عند ذلك، وقد خالجه كثير من الزهو والكبر: — أرأيتم انه ليس لسيمون والد ؟

وغشيتهم موجة من الصمت العميق، لانهم دهشوا حقاً لهذا الحادث المستحيل، الذي لا مثيل له، والمخالف لسنة الطبيعة: « طفل ليس له اب ! » وأخذوا ينظرون اليه كحادث غريب خارق للطبيعة. وبدأوا يشعرون في انفسهم بان ازدراء امهاتهم لبلانشوت يتضخم ويزداد. هذا الازدراء الذي لم يكن قد ظهر لهم امره ولا عرف سببه.

اما سيمون فقد اسند جسمه الى شجرة كيلا يسقط ، وظل كذلك كمن نزلت به كارثة لا تدفع ، او حلت به خسارة لا تعوض . وأراد ان يرد كيدهم الى نحورهم ، ويدفع عن نفسه هذه التهمة المخيفة ، تهمة عدم وجود اب له ، ولكنه عبثاً حاول ، ومحالا طلب :

وصاح بهم اخيراً على حين غرة ، وقد اكتست بشرته بزرقة دكناء :

ولكني أملك ابا !

فسأله الفتى على الفور :

— أين هو ؟

فأطرق سيمون ولم يجب ، لانه لايعرف فضحك الاولاد بجماسة وقوة واندفاع . وقد شعر ابناء الحقول هؤلاء ، وهم اقرب الى البهائم منهم الى اي شيء ، بالحاجة الوحشية الملحة نفسها ، التي تدفع الدجاج الى الاجهاز على واحدة منه ، عندما تصاب بجرح او تمس بأذى .

وأخبر سيمون بالامر جاراً صغيراً له ابن ارملة كان يراه مثله على الدوام ، يغدو ويروح دوماً بصحبة امه وحدها :

— وانت ايضاً ... أليس لك أب ؟

— بلى ان لي اباً !

فسأله سيمون مسرعاً :

— وأين هو الآن ؟

فأجاب الطفل في أنفة مستحبة :

— لقد مات .. ان ابي الآن في لحده

وسرت موجة من الاستحسان العميق بين هؤلاء الاشقياء ، كأن وجود اب هذا الطفل في المقابر كان نصراً لزميلهم الفتى وخذلاناً « لخصمهم » الطفل . هذا الخصم الذي ليس له والد بالمرة !..

اما هؤلاء الاخباث — الذين خلق آباؤهم على الغالب من طبقة السكارى واللصوص والاشرار والقساة على ازواجهم — فقد اخذوا يتدافعون ويتضاغطون شيئاً بعد شيء ، كأنهم رجال الشرع الحقيقيين يقاضون من كان خارجاً على القانون فيدينونه ويعدمونه الحياة .

وعلى حين غرة أخرج واحد منهم لسانه لسيمون — وكان واقفاً قبالته — وصاح به في خبث ومكر ودهاء :

— أليس لك أب ! أليس لك أب ! ؟ .

فقفز اليه سيمون ، وقبض بكلتا يديه على شعره وأخذ يشبعه ضرباً ولكماً ويثخن ساقيه بضربات صائبة من قدميه ، كل ذلك ، بينما كان فمه وأسنانه منصرفة الى عض وجنة ذلك الخبيث بغيظ ووحشية . وحدث حينذاك اضطراب عظيم ، وفوضى كبيرة ، ثم فصل المتشاجران بعضهما عن بعض ، ووجد سيمون في النهاية ممزق الثياب ، مثخن الجراح ، ملقىً على الارض وسط حلقة هؤلاء الصبية الاشقياء ، الذين أخذوا يصفقون طرباً للنصر ، وسروراً بالظفر . ولما نهض سيمون وأخذ ينظف بيده ، في حركة آلية وسريعة دراعته الصغيرة التي ملئت بالغبار والاوساخ ، التفت اليه واحد منهم وصاح به متهكما :

— اذهب الى ابيك واشكنا اليه !

هنا شعر سيمون في اعماق نفسه بأنه ينهزم امامهم وينهار . لقد كانوا اقوى منه وأشد بأساً لقد قاتلوه وهزموه ، ولكنه لم يستطع ان يرد على ما قالوه له ، لانه يشعر بصدق ما قالوه من انه لااب له . وغلبته عزة النفس والاباء ، فحاول بضع لحظات ان يناضل العبرات التي اوشكت ان تخنقه . ثم جلس وأخذ يبكي وينتحب ، دون صوت وصار يرسل شهيقاً يهزه بعنف وقوة .

وهنا فاض في عيون أعدائه هؤلاء سرور وحشي ، ثم التفوا ، وهم منتشون بخمرة الفرح ، وأخذ بعضهم بأيدي بعض ، وشرعوا يرقصون بشكل دائرة حول سيمون ، وهم يرددون بين الفينة والفينة هذه اللازمة :

— ليس له اب ! ليس له أب !..

وفجأة كف سيمون عن بكائه ونحيبه . لقد انفجر في نفسه غضب شديد ، جعله مجنوناً او كالمجنون . ورأى تحت قدميه بعض الحجارة ، فأسرع الى التقاطها ، وأخذ يقذف بها هؤلاء القساة بكل ما أوتي من قوة . فأصيب منهم اثنان اوثلاثة ، وولى الباقون الادبار ، وهم يصيحون . وكان مرآه في تلك الساعة مرعباً حقاً ، حتى انه استولى على اولئك الصغار جزع عظيم ، وهلع لاحد له .

لقد تخاذلوا وجبنوا — كعادة الناس امام رجل في سورة غضبه ثم تواروا واختفوا . فلما وجد الطفل ابن السفاح نفسه وحيداً ، اخذ يعدو نحو الحقول والبراري ، لان ذكرى حادث مرت بخاطره ، فوجد فيها الحل الموفق لمشكلته ، وذلك بأن يلقي بنفسه في النهر .

وفي الحق رجع بفكره ثمانية ايام الى الوراء ، يوم ألقى متسول مفلوك(1) بنفسه في الماء لنفاد المال من يده . وكان سيمون حاضراً

(1) المفلوك : الفقير المدقع

ساعة اخراج الجثة من الماء . وكان منظرها يستثير في النفس كوامن آلامها ويبعث دفين احزانها ، كما ان ثياب صاحب الجثة كانت رثة ، وسحنته قبيحة ، فتأثر سيمون لما يبدو عليه من الهدوء . وعلى عينيه المفتوحتين من جمود .

— انه ميت !

قالها احد المتفرجين ، فأضاف على الاثر آخر :

— انه الآن في اقصى درجات السعادة !

وسيمون يريد ايضاً ان يقضي على نفسه بالغرق ، لانه لا يملك اباً — كما فعل ذلك المتسول الذي لم يكن لديه من الدراهم شيء ابداً .

ووصل بعد قليل الى الماء ، وأخذ ينظر اليه ، وهو يجري ، وكان بعض السمك يلعب ويسبح مسرعاً في التيار الرائق الرقراق ويثب بين الفينة والفينة كي يخطف بعض الذباب الذي كان يتطاير على سطح الماء . وامسك سيمون عن البكاء كي يمتع ناظريه بمشهد السمك ، لان احبولته التي يحيكها للايقاع بالذباب كانت تهمه كثيراً !!

كما يعقب الزوبعة في بعض الاحايين فترة من هدوء ، ثم تزفر الريح فجأة زفرات حادة عنيفة تهتز لها الاشجار ويعلو حفيف اوراقها ثم تختفي وتضيع في الافق ، كذلك عاودت سيمون هذه الفكرة ولكن بصحبة الم شديد :

— « سأنتحر . . . سألقي بنفسي في الماء لاني لا املك اباً ! »

كان الطقس حاراً ولكنه جميل رائع . وكانت الشمس ترسل اشعتها الذهبية اللطيفة فتجفف البقول والاعشاب الخضر . وكانت المياه تلتمع في مجراها كأنها وذائل [١] . قضى سيمون هناك دقائق في غبطة عميقة وسعادة بالغة بعد الفترة التي سكب فيها دموعه .

ولقد اشتهى من كل قلبه ان يضطجع على الاعشاب تحت اشعة الشمس الدافئة ، وان يستسلم بعد ذلك لسلطان الكرى القاهر .

وقفزت تحت قدميه ضفدعة صغيرة خضراء ، فحاول ان يقبض عليها فلم يفلح ، فعاود الكرة واخذ يعدو وراءها ولكنه اخطأها ثلاث مرات متواليات . واخيراً . . . قبض عليها من طرف رجليها ، واخذ يضحك في نشوة ، عندما رأى الجهد الذي بذلته في سبيل النجاة ، ثم تجمعت كلها وانقبضت فوق ساقيها الطويلتين . وبحركة مفاجئة مدتها وشدتها ، فلما تصلبتا وصارتا كقضيب لا يلين ، ضربت

(١) جمع وذيلة وهي المرآة .

الفضاء بيديها اللتين اخذتا تهتزان كما لو كانتا يدي انسان . فذكره ذلك بألعوبة مركبة من دفيفات خشبية ضيقة ، مسمرة بخطوط متكسرة ، الواحدة فوق الاخرى ، اذ تتحرك حركات متشابهة ، فتحرك جنوداً خشبية صغيرة موضوعة فوقها .

هنا عاد ففكر بمنزله ثم في امه ، وهزه الحزن والغم هزة عنيفة حادة فعاود البكاء ثانية . وسرت في جسمه بضع قشعريرات ، فجثا على ركبتيه واخذ يرتل صلاته بخشوع ، كما كان يفعل ذلك قبل نومه غير انه لم يستطع انهاءها لان الزفرات عاودته واستولت عليه ، ولكن بصورة شديدة أليمة . لم يعد يفكر او يرى شيئاً مما حوله ولم يكن له من شاغل اذ ذاك سوى البكاء .

وبينا هو كذلك اذا بيد ثقيلة تلقى على كتفه وصوت غليظ يسأله :

— ما الذي احزنك واشجاك يا بني ؟

فالتفت الطفل ، فرأى عاملاً ذا لحية ، وشعور سود جعد ، ينظر اليه نظرة عطف واشفاق وحب ، فاجابه عن سؤاله ودموعه تملأ عينيه ، وتفيض على وجنتيه ونحره :

— لقد . . ضر . . بو . . ني . . لأ . . نه . . ليس . . لي اب ! ليس . . لي . . اب ابداً ! .

فقال له الرجل والبسمة تفيض على ثغره :

— ولكن كيف ذلك ؟ ان لجميع الناس اباء !

فقال له الطفل وهو يغالب ثورة احزانه ، وفورة اشجانه ؟

— ولكن . . انا . . انا . . ليس لي اب ! .

عند ذلك تناول الرجل الامر على انه جد لا هزل فيه . وادرك ان الطفل هو ابن بلانشوت . وبالرغم من انه حديث عهد بالبلدة فهو يعرف قصة هذه المرأة ، ولكن في شيء من الفوضى والابهام . ثم قال للطفل :

تعزَّ يا بني ، وتعال معي الى امك فسنجد لك اباً !

وسلكا سبيلها معاً ، وبينا الرجل ممسك بيد الطفل يقوده ، ادركته نشوة من الغبطة والسرور ، فأخذ يبتسم من جديد لانه سيرى عما قليل بلانشوت التي كانت ، كما يقولون ، احد حسان البلدة المعدودات بجمالهن الاخاذ بالعقول ، وسحرهن النفاذ الى الالباب . ولعل الرجل كان ساعتئذ يتحدث الى نفسه ويقول : ان الشباب الذي افلس اول مرة [١] ، من الممكن ان يفلس ثانية !

(١) يريد موبسان بالشباب الذي افلس ، شرف المرأة الذي ثلم .

ووقفا بعد حين امام بيت صغير ابيض شديد النظافة . فقال الطفل : — ها قد وصلنا !

قال ذلك وصاح مناديا امه . فظهرت في الباب امرأة . وكف الرجل عن الابتسام مذ رآها ، لانه ادرك للحال انه لا يمكنه قط المزاح مع هذه الفتاة الشاحبة، التي ظلت واقفة بالباب في كثير من الجفاء والقسوة ، كما لو كانت تبغي الحؤول بين بيتها وبين اي رجل يريد ان يطأ عتبته . . . ذلك البيت الذي غدر بها فيه رجل آخر . .

وتمتم الرجل في صوت خفيض ، وهو ممسك قبعته بيده ، وقد صدمه وأرهبه موقفها :

— هاك يا سيدتي طفلك ! اني اعيده اليك ، وقد كان ضائعاً قرب النهر .

ولكن سيمون وثب الى عنقها ، وقال لها وقد عاد الى بكائه :

— كلا يا اماه . . . لقد اردت ان أغرق نفسي في النهر ، لان اولئك الصبية الاخباث آذوني وضربوني ، لانه ليس لي اب .

فانكفأ لون الفتاة ، وعلت وجنتيها حمرة خجل لاذعة، تسربت الى لحمها حتى بلغت اعماقه . ثم ضمت الى صدرها طفلها العزيز بشدة وتحنان ، بينما كانت دموعها تجري مسرعة على خديها . اما الرجل الحائر المضطرب ، فقد سمر في مكانه ، وظل حائراً لا يدري كيف ينصرف او يتخلص . وركض اليه سيمون على حين غرة وقال له :

— هل لك في ان تصبح اباً لي ؟

فأحدث هـذا السؤال جواً من الصمت رهيباً . اما بلانشوت التي يبس لسانها في حلقها ، والتي اذابها الخجل والحياء ، فقـد استندت الى الجدار ويداها فوق قلبها . فلما رأى الطفل ان احداً لم يجبه استأنف الحديث فقال :

— اذا كنت لا تريـد ذلك ، فسأعود الى النهر كي اغرق نفسي فيه .

فتناول الرجل الحديث على انه افكوهة او اهكومة وقال ضاحكاً : — كيف لا ؟ اني اريد ! .

— اذن قل لي ما اسمك ، كي اجيب اولئك الاشرار ، فيما لو ارادوا معرفة اسمك ؟

فأجابه الرجل : — فيليب .

فوجم سيمون ، ولزم جانب الصمت لحظة ، كي يستعيد هذا الاسم في ذاكرته ويحفظه . ثم خالجه سرور مرقص ، وغمرته غبطة مسكرة ، فمد الى الرجل ذراعيه الصغيرتين وهو يقول :

— أي فيليب ! انك ابي !

فرفعه الرجل اليه وغمر خديه بقبلاته ثم انزله ، وذهب مسرعاً بخطواته الكبيرة . . .

ولما غدا الطفل في صبيحة اليوم التالي الى مدرسته ، استقبلته هنـاك ضحكة خبيثة ماكرة . وفي ساعة الانصراف اراد الفتى الشرير ان يعيد الكرة ، ولكن سيمون قذفه بهذه الكلمات ، وكأنه يرميه بحجر : — ان ابي يدعى فيليب !

فانطلقت من كل صوب وناحية صيحـات عميقة من السرور والتهكم :

— فيليب من ؟ فيليب ماذا ؟ . وما هذا الشيء « فيليب »؟ ومن أين جئت بهذا الـ« فيليب » ؟!

فلم يجب سيمون على هذا السيل الجارف من الاسئلة بحرف ، ولكن ايمانه بصحة عقيدته راسخ لا يتزعزع ، ونظر اليهم يتحدى مستفزاً اياهم للجدال او القتال ، مفضلا ان يتحطم ويتهشم على ان ينهزم امامهم ويفر . . .

ولكن استاذ المدرسة انقذه من بين ايديهم فانطلق مسرعاً الى امه .

*

في الشهور الثلاثة التي تلت هذا الحدث كان فيليب ، العامل الكبير ، يمر في بعض الاحايين من امام منزل « بلانشوت » . وقد يبث في نفسه روح الشجاعة والاقدام فيبادلها بضع كلمات ، اذا ما رآها تتحدث بالقرب من نافذتها . فكانت تجيبه بأدب وحياء ، وحصانة ووقار ، دون ان تبادله الابتسام ابداً ، ودون ان تمكنه من دخول منزلها . ولقد ساوره خلال ذلك غرور بنفسه وزهو، شأن سائر الرجال . فخيل اليه ان حمرة الخجل تكسو وجنتيها حين تخاطبه او تحادثه .

ثم ان امرها ذاع، وصيتها شاع ، واصبح من الصعوبة بمكان رتق خرق اتسع . وكذلك الشرف الرفيع اذا مس او ثلم ، تعذر على صاحبه اعادته الى مكانه ، وصار النيل منه سهلاً . فبالرغم من تحفظات « بلانشوت » الشديدة وحذرهـا الزائد ، اخذوا يتهامسون بحديثها في البلدة ويلغطون .

اما سيمون فقد أحب اباه الجديـد كل الحب ، وصار يخرج الى النزهة بصحبته في اكثر الامسيات ، وشرع بالمثابرة على مدرسته دون ان يحدثهم او يخاطبهم ، وبالرغم من ذلك كله فقد التقاه ذات يوم ، الفتى الذي كان اول من اساء اليه ، وقال له :

— لقد كذبت وقلت مينا ، انك لا تملك ابا يقال له فيليب .

فسأله سيمون وقد أضطرب واهتاج :

— وكيف ذلك ؟؟

ففرك الفتى كفيه بعضها ببعض وقال :

— لو كان لك اب لوجب ان يكون بعلاً لامك .

فدهش سيمون واضطرب امام الحقيقة الناصعة ، والحجة التي لا تدحض ، وبالرغم من ذلك فقد اجاب :

— انه ابي على اي حال ، ولافرق في ذلك .

فقال له الفتى ضاحكاً :

— من الجائز ان يكون اباك ، ولكنه ليس كذلك على الدقة والتمام . فطأطأ الطفل رأسه وذهب حالماً تضطرب في نفسه الهواجس والظنون ، ويمم وجهه شطر دكان الاب « لوازون » الحداد حيث يشتغل فيليب .

ومحل الحدادة هذا مظلم شديد الظلمة ، تغطيه الاشجار ، وتحجبه عن الانظار بظلها الظليل ، حتى لتحسبه مدفوناً تحتها ، ولم يكن ثمة نور سوى لهيب احمر ، يتصاعد من موقدة عظيمة ، فيضيء بانعكاسات اشعته الكبيرة خمسة من الحدادين ، ذوي الاذرع العارية الذين كانوا يضربون على سنادينهم بقوة وعزم ونشاط ، محدثين ضجة هائلة . كانوا واقفين يشتعلون نشاطاً وقوة ، كأنهم زبانية او شياطين ، وانظارهم عالقة بالحديد المستعر الذي يطرقونه وكانت رؤوسهم الثقيلة ترتفع مع مطرقاتهم ثم تنثني هابطة معها .

دخل سيمون الدكان ، دون ان يراه او ينتبه احد اليه . وذهب تواً الى صديقه يجذبه من كمه ، فالتفت هذا اليه ، وتوقف العمال فجأة عن الشغل ، واخذوا ينظرون اليهما بانتباه شديد .

في وسط هذا الجو الغريب من السكون ، شق صوت سيمون المضطرب الخفيض طريقه في الفضاء :

— فيليب ! قل لي يا هذا ، ان الفتى « ميشود » حدثني بانك لست ابي على الدقة والتمام .

فسأله العامل فوراً : — ولماذا لست اباك ؟

فأجابه الفتى بكل ما ملكت طفولته من سذاجة ووداعة :

— لانك لست زوج والدتي .

لم يضحك احد من هذا الجواب . ولبث فيليب مسنداً جبهته على كفيه الغليظتين اللتين تعتمدان على مطرقته المستندة على السندان . لقد كان حالماً يفكر . وظل رفاقه الآخرون ينظرون اليه واجمين . وكان سيمون بين هؤلاء العمالقة طفلاً صغيراً وقف ينتظر نتيجة هذا الصمت بصبر نافد ، وقلق ظاهر

وقطع هذا الصمت فجأة صوت واحد من الرفاق الاربعة . اخذ يتكلم باسم زملائه الباقين ، موجهاً الخطاب الى فيليب :

— ان بلانشوت فتاة شجاعة باسلة ، ذات بأس وشهامة ، حسنة السلوك ، جيدة الاخلاق ، وذلك بالرغم من فجيعتها انها فتاة جديرة برجل شريف .

فصدق الثلاثة الآخرون كلام زميلهم . ثم تابع كلامه فقال :

— أهي خطيئة هذه الفتاة انها سقطت ؟ لقد وعدت بالزواج ، ولكنه وعد لم ينجز . اني اعرف اكثر من واحدة فعلن ما فعلته « بلانشوت » على التمام ، والناس رغم ذلك ، يحترمونها اجل احترام .

فصدق الثلاثة ايضاً كلام زميلهم قائلين معاً :

— هذا صحيح ! هذا صحيح !

واستأنف رفيقهم حديثه فقال .

— كم من الحزن والالم تعاني هذه المسكينة ، وهي تربي طفلها وحدها . وكم سكبت من دموع وذرفت من عبرات ، مذ امتنعت عن الخروج الا الى الكنيسة . ليس ثمة من يعلم ذلك سوى الله وحده .

فاجاب الاخرون : — وهذا صحيح ايضاً :

خيم على الجمع عند ذلك جو من الصمت رهيب ، ولم يعد يسمع سوى صوت المنفاخ الذي يسعر النار ويؤججها في الموقد .

وعلى حين غرة انحنى فيليب نحو سيمون وقال له :

— اذهب الى امك واخبرها بأني قادم اليها هذا المساء للتحدث معها في أمر .

ثم دفع الطفل الى خارج الدكان من كتفيه برفق ، وعاد الى عمله . ارتفعت المطرقات الخمس ، ثم سقطت دفعة واحدة على السنادين ، واستمروا كذلك بين مجالدة الحديد ومغالبته حتى هبط الليل ، وهم ما يزالون أقوياء نشيطين مسرورين ، كمطرقاتهم التي لا تكل ولا تمل من أداء واجبها .

كما يرن جرس الكاتدرائية في ايام الاعياد فيعلو على على سائر الاجراس كذلك كان صوت مطرقة فيليب يعلو على المطرقات الاخرى . وكانت بين لحظة وأخرى تهوي فتحدث ضجة عنيفة مصمة . وقد كان يشتغل بشغف زائد وهوى ملح ، واقفاً على قدميه بين الشرر المتطاير .

كانت السماء ملأى بالنجوم عندما جاء فيليب يطرق باب بلانشوت ، وكان يرتدي دراعة ايام الآحاد ، وقميصاً جديداً ،

عتاب

لعلي الزيبق

مـا بعينيكِ ؟.. أنتِ أغرودةُ الحب المدمّى ، رفيقة الاهواء
في خيـالِ الشبابِ رجفةُ ثغرٍ تتملاّه رعشةٌ من سناء
تبهرين العيون بالخطرات البيض غبّ الرنوّ ، غبّ اللقـاء
وانـا دمعةٌ على خدّ حسناء ... ولحنٌ مشرّد الايحـاء

*

... وتضنّين بالأضاحي اليتامى... والهوى ملء خافقي وردائي
أيّ لهوٍ مجنحٍ ؟.. يا ابنة الفجر تولاّكِ بالفتون الوضاء
فنفرتِ مع الصبايـا كما ينفرُ جنحُ الضحى من الادجـاء
أوَلم تسمعي ابتهال الغرام الحلو مني ؟.. ألم يرحكِ رجـائي
نظرة منكِ.. لا تطيعي الغواني السمر إني.. قنعتُ بالايمـاء
وأصيخي لسقسقات هزار الحب تدعونـا بأحلى نداء

*

ما بعينيكِ ؟..ملء ثغري عتاب فاسمعيه.. ففيه بعضُ رجـاء

حلب

وقد سوّى لحيته ورجلها.

ظهرت الفتاة على عتبة بيتها وخاطبته بصوت لا يخلو من بث وحزن:

– من الخطأ ، بل من المنكر مجيئك ايها السيد فيليب بعدما ارخى الليل سدوله.

فأراد ان يجيب ولكن الكلام احتبس في حلقه. ثم تمتم وغمغم وظل امامها مرتبكاً لا يدري ما يقول.

فلما رأته كذلك قالت:

– انت تعرف حق المعرفة اني لااريد ان يلغط الناس بذكري اكثر مما لغطوا وتكلموا.

حينئذ تشجع فيليب وقال:

– هل ثمة مانع من ان تصبحي زوجاً عزيزة لي ؟

لم يسمع لسؤاله جواباً حتى ولا صوتاً ، ولكن خيل اليه انه يسمع في ظلام الغرفة صوت جسم يسقط. فدخل مسرعاً واستطاع سيمون ، الذي كان راقداً في سريره ، ان يميز رنين قبلة... وبضع كلمات جمجمتها امه في صوت خفيض لا يكاد يسمع. وشعر فجأة انه بين يدي صديقه ، وبينما كان فيليب يرفعه بذراعيه الجبارتين قال له:

– قل لرفاقك ، ان اباك هو الحداد فيليب ريمي ، وانه سيفرك اذني كل من يلحق بك اذى منهم.

*

... وفي صبيحة اليوم التـالي ، بينما كانت المدرسة ملأى بالتلاميذ ، والدرس يوشك ان يبدأ ، وقف سيمون بينهم بوجه شاحب ، وشفتين مرتعشتين ، وقال بصوت واضح لا تلعثم فيه ولا تلكؤ:

– ان ابي ايها الرفاق ، هو الحداد فيليب ريمي ؛ وقد وعد بأنه سيفرك آذان من يؤذونني.

في هذه المرة فقط... لم يضحك احد ، لانهم جميعاً يعرفون حق المعرفة من هو الحداد فيليب ريمي ، وكان هذا اباً يزدهي به الجميع ويفخرون.

دمشق عبد الغني العطري

لورد بيرون

بقلم اوغسطس مبور

☆

مات الشاعر الانكليزي الشهير اللورد « بيرون » في ميسولونغي من مدن اليونان ابان الحرب الاستقلالية وقد خالجت احد المؤرخين الانكليز ، منذ عدة سنوات ، شكوك حول ما سجله التاريخ عن نقل جثمان بيرون على متن دارعة انكليزية ووضعه في احد نواويس كنيسة « هاكنول » في « نوتنغامشاير » وقد خالجت هذه الشكوك مؤرخين آخرين ، ففتحوا الناووس اخيراً لوضع حد لهذه الشكوك. فوجدوا نعشاً عليه قارورة تحتوي – تصديقاً لاحدى الوثائق – على قلب الشاعر ودماغه . ولما رفعوا غطاء النعش وجدوا جثمان بيرون محنطاً ومسجى كما وصفته تلك الوثائق التاريخية تماماً . فيمكن الآن الاطمئنان الى صحة جثمان الشاعر. ويعلم الجميع ان بيرون كان مصاباً بالعرج ، لكن مؤرخيه لم يسجلوا في اية رجل كانت العاهة . اما الآن فان القاء نظرة على الجثمان تكفي لنعرف انه كان يعرج من رجله اليمنى .

وقد رأت « الاديب » بهذه المناسبة ان تنشر كلمة سريعة عامة عن الشاعر :

•

توفي اللورد بيرون في السادسة والثلاثين من عمره ، وكان في الاعوام العشرة الاخيرة من عمره اكثر الشعراء شهرة في انكلترا. ولم تبلغ شهرته في بلاده اكثر مما كانت عليه حينذاك. ولكن في بعض البلدان وخاصة في اوربا لم يزل اشهر شاعر انكليزي. والسبب في هذا لا يعود الى نوع شعره ولكن الى شخصيته الرومانتيكية . فمها اختلفت الآراء بشأن بيرون والآراء بشأنه كثيرة مختلفة فليس من شك في سحر تلك الشخصية وفي ما خلعه عليها هو من السؤدد والعمق في نهاية حياته

ولم يحاول اي شاعر ان يكشف عن نفسه للناس بشعره كما فعل بيرون. فقسم كبير من ابياته ليس الا مرآة تعكس لنا حياته هو أو زاوية من زوايا قلبه. ولا يعني ذلك اننا نستطيع قبول ما يصوره هو لنا عن نفسه كحقيقة لا شك بصحتها « اذ انه كان يجب ان يمثل دورا خاصا ويخلع قبول ما يصوره لنا عن نفسه كحقيقة لا شك بصحتها ، اذ انه كان يجب ان يمثل دورا خاصا ويخلع على نفسه ستاراً من الاسرار والالغاز الملونة وخاصة في علاقاته مع النساء ثم يتظاهر بانه يمزق هذا الستار ويكشف عن نفسه على حقيقتها فيصور نفسه محطم القلوب وكان بيرون يعيش عيشة مغامرات عاطفية وكان يفعل الشيء دون ان يفكر فيه بل يتبع في ذلك شعوره فقط. وقد احيطت شخصيته برداء جذاب اذ انه كان جميل الخلقة والقامة عظيم الثراء والنسب ولكنه كان يعرج دائماً لعاهة في قدمه. وكما كان كريماً عميق العواطف كذلك كان في بعض الاحيان فظاً لا يرحم. فليس من المستغرب ان تكون شخصية كهذه قد اجتذبت الجمهور والشهرة في الشعر.

وظهر اول كتاب لبيرون « ساعات الكسل » عندما كان في التسعة عشر من عمره وكان لم يزل طالباً في جامعة كمبردج. ولم تكن قيمة الكتاب الشعرية كبيرة ولكن بوادر الشاعرية كانت ظاهرة. ولما نقد احد الاسكوتلنديين الكتاب نقداً شديداً رد عليه بيرون بمقال ظهر فيه ان الشاب ذو قلم حاد وذكاء متوقد.

ثم سافر بيرون في المتوسط وعاد الى انكلترا حيث نشر النشيدين الاولين من « تشايلدهارولد » وهي قصيدة عاطفية طويلة وطدت شهرته توطيداً راسخاً حتى انه قال عن نفسه : « لقد استفقت في الصباح ووجدت نفسي : معروفا ! » وكان اذ ذاك في الرابعة والعشرين من عمره ،

وفي السنوات القليلة التي تلت نشر سلسلة من القصص الشعرية الجيدة ، ولكن كل قصيدة كانت اقصر من سابقتها . ومن هذه القصائد قصيدة « الحلم » وقصيدة « الظلمة » التي يصف بها صورة

للعالم قبيل انتهائه عندما تأخذ الظلمة بالاطباق عليه . وتتقد قصائده بنار الشاعرية الصحيحة مثل قصيدته : « هي تمشي بالجمال » ، كما ان بعض قصائده قد لحنت وظلت اكثر من قرن مشهورة في صالونات انكلترا . وفي عام ١٨١٦ حدث التغير الهام في حياة بيرون ، عندما ترك انكلترا للمرة الاخيرة . فقد تزوج وريثة غنية وافترق عنها بعد مدة غير طويلة من الشقاق والاختلاف والتعاسة . وانتشر الخبر انه قد عامل زوجته معاملة سيئة ونبذه البعض حتى وجد نفسه مضطرا الى نفي نفسه . ثم ان ظهور النشيدين الاخيرين من « تشايلد هارولد » زاد في شهرته اذ انه ليس من الصعب ان نلاحظ ان بيرون كان يصور نفسه بطلا حزينا في تلك القصيدة . ومن احسن شعره هذه الابيات التي يصف بها تلك الليلة في بروكسل قبل معركة « واترلو » ، وهي ابيات موجودة في النشيد الثالث من « تشايلد هـارولد » :

قال فيها مـا ترجمته :

« وكان في الليل صوت حركة ونهوض ،

« وكانت عـاصمة البلجيك قد استجمعت اذ ذاك جمالها وفروسيتها واضاءت الانوار البراقة على النساء الفاتنـات والرجال البواسل ونبض الف قلب نبضة الفرح .

« وعندمـا تعالت الموسيقى بامواجهـا الصاخبة باللذة ، نظرت عيون ناعمة نظرة الحب الى عيون تكلمت مرة اخرى ،

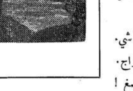
« وكان كل شيء مرحاً كأجراس الزواج .

« ولكن لنصغ ! ها صوت عميق يتعالى كأنه المد الصخاب ! »

وفي قصيدته الكبرى « دون جوان » تبرز لنا قوته التصورية والعقلية . ولكن هذه القصيدة لم تتمه اذ ان بيرون سافر الى اليونان في رحلته التي تتوجت بها حياته وانتهت بها ، بعد ان كان دائمـاً يتحيز للوطنيين الطليان وينادي معهم لينالوا وحدتهم واستقلالهم .

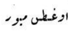
وسافر وقد عزم على تقديم جميع ممتلكاته حتى وحياته اذا لزم، في النضال لنيل استقلال اليونان ففي قصائد كثيرة له يظهر لنا بوضوح امله في ان تعود اليونان الى سابق عزها القديم .

واظهر بيرون مقدرة على القيادة عندما وصل الى « ميسولونغي» ووجد كل شيء في حالة فوضى واستقبله اليونانيون استقبال الابطال والمحررين ، وخافوا خوفا عظيماً عندما حدثت عاصفة جوية اذ انهم كانوا يعلمون انه مريض على ظهر السفينة ، واعتبروا ذلك بمثـابة نذير بموته . ووصلتهم الاخبـار بعد ذلك وفيها ان بيرون قد مات ، فوصل الخبر الى انكلترا بسرعة البرق ، وحزن الجميع اذ اعتبروا استشهاده في قضية نبيلة كفارة كافية عن اخطائه .



الشاعر بيرون

ومات في السادسة والثلاثين من عمره ، وهو اكثر الشخصيات الشعرية البريطانية شهرة . فحياته وكتاباته تؤلف نسيجاً ملوناً جذاباً هو ما يعرفه النـاس اليوم « بالتراث البيروني » .



جولة الأديب في شهر

الاستاذ العقاد يتحدث عن :
موقف مصر من الادب اللبناني والسوري
وحدة الثقافة العربية
العذد الماضي من الاديب

الاستاذ الحكيم يتحدث عن :
وحدة الادب العربي ومستقبله واتجاهاته بعد الحرب ، المسرحية بين الفن والاصلاح ، المعري والمرأة .

معالي حسن حسني عبد الوهاب باشا يتحدث عن :
الحياة الفكرية في تونس ، اتصال تونس بالادب العربي الحديث .

ثلاثة يتحدثون الى الاديب :

عبـاس محمود العقاد ، توفيق الحكيم

حسن حسني عبد الوهاب باشا

◆

مع الاستاذ عباس محمود العقاد

لم اكد القى الاستاذ عباس محمود العقاد حتى حمل على الذين يدعون بأن مصر تحارب الادب السوري او اللبناني ، وعرفت ، بعد ان سألته عمن يقصد بهؤلاء المدعين ، انه يشير الى تلك الضجة التي اثارها مقال تناول فيه كاتبه الثقافة اللبنانية وحللها الى عناصر ، وفكك العناصر الى ذرات ، تمتاز كل ذرة من ذراتها بركام مكدس من الحضارات لا تمتاز به مثيلاتها في الاقطار العربية الاخرى .

وعبثاً حاولت ان اقول له ان اتهام مصر بهذه النزعة ، اتهام لم يقل به فيها اعلم ، مفكر ولم يحمله مقال . . . ولكنه اصر على العتاب واصر على الدفاع عن هذه الفكرة التي لم يعارضها احد . . .

فقال : ان الفكرة التي تقول بأن في مصر حركة ترمي الى الغض من الادب السوري اللبناني ، فكرة لا اساس لها على الاطلاق . واستطيع ان اختار لك الامثلة من آخر امر بنا من حوادث ، فالاستفتاء الذي قامت به مكتبة المعارف في سلسلة اقرأ ، كانت اصوات السوريين واللبنانين والفلسطينيين فيه نحو ٥٠٠ صوت ولم تكن كل هذه الاصوات لكتاب مذكرات دجاجة ، بل كان اكثر من نصف الاصوات ضده . واذكر ان كتاب « شاعر ملك » هو الذي فاز برأي فلسطين . واما الكتاب الذي فاز في الاستفتاء ونال اكثرية الاصوات وهو كتاب مذكرات دجاجة لمؤلفه الفلسطيني الدكتور موسى الحسيني ، فقد فاز باصوات المصريين دون غيرهم ، هذه الاصوات التي بلغ عددها نحو ٢٨٠٠ صوت .

فقلت — هل توافقون الجمهور في اختياره هذا الكتاب ؟

فأجاب : — لا ، اني ارى ان هذا الكتاب لا يستحق الجائزة فكتاب بودلير ، وكتاب شاعر ملك خير منه .

وتابع الاستاذ العقاد كلامه في الدفاع عن نزاهة الادب المصري فقال : وكذلك اذا تناولنا الموضوع من ناحية الصحافة فلا يمكن ان يكون في مصر معارضة لانتاجكم الادبي ، لان الصحافة المصرية في يد السوريين واللبنانيين . وقد جاء يوم كانت مصر فيه هي الميدان الوحيد لكل اديب من ادبائكم ، حتى ادباء المهجر ، فقد كانوا يطبعون كتبهم في مصر الى ان اتيح لهم طبعها في بلادهم ، مثل كتب جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه .

ولكن امراً واحداً يمكنني ان اوافق عليه ، هو ان الصحف هنا لا تنشر شيئاً عن الادب السوري او اللبناني ، ولكن هذه الصحف نفسها لا تكتب شيئاً عن الادب المصري . فقد يصدر الكتاب لي احياناً ولا يشار اليه على الاطلاق . . .

وكذلك تستطيع ان تقول عن كتاب مصر ، فاذا كان المازني مثلاً لا يكتب عن ادباء سوريا فلأنه لا يكتب عن ادباء مصر ايضاً ، وكذلك قل عني او عن طه حسين . . .

وقد جاء وقت كانت مصر لا تقرأ فيه الا الادب السوري واللبناني ، فاذا ما تغير الاتجاه واصبح كتاب مصر هم الذين يُقرأون الآن فلانهم احسن من كتاب الشام ، فكتابكم اقل

انتاجاً وقوة من المصريين. كان يقرأ سابقاً ليعقوب صروف وجرجي زيدان واليازجي، وانا نفسي قرأت لهؤلاء الكتّاب قبل ان اقرأ لكتاب مصريين، اما الان فعلى خلاف ذلك لان الكتاب المصريين ممتازون على الكتاب اللبنانيين والسوريين.

ثم تناول الحديث وحدة الثقافة في البلاد العربية واختلافها فقال الاستاذ العقاد: تختلف الوان الثقافة في كل وسط، فحيث يوجد سلطان علمي ديني تكون الثقافة اميل الى المحافظة، ففي مصر نرى ان نزعات التطرف في المذاهب الاجتماعية والادبية اقل من نزعات التطرف في سوريا ولبنان. وفي العراق نزعات المحافظة اشد قوة من مصر نفسها لان الفكرة الدينية ماثلة ابداً. وفي الحجاز تبدو المحافظة اشد من اي بلد عربي آخر. وفي شمال افريقيا عامة تتغلب اللغة الاجنبية على لغة ابنائه، وتتأثر اللغة العربية بالثقافة الاجنبية.

وعندما كنا نتناقش في جلسة من جلسات مجمع فؤاد الاول للغة العربية في اقتراح عبد العزيز فهمي باشا الذي يعرض فيه كتابة العربية بحروف لاتينية، قال لنا فهمي باشا: ستظلون تبحثون هنا قضية الحروف اللاتينية الى ان يأتيكم كتب من سوريا ولبنان مكتوبة بالحروف اللاتينية!.. يريد فهمي باشا ان يقول ان الحرية في بلادكم اكثر منها في مصر...

وهذه الفوارق في البلاد العربية المذكورة، واختلاف النوازع الفكرية فيها من أفيد الاشياء للثقافة والفكر.

ثم انتهى الحديث الى «الاديب»، وبعد ان تلقيت كلمات الاعجاب والثناء على جهدها في سبيل الادب العربي الحديث ابدى بعض ملاحظات على الجزء الاخير منها، فقال ان امين نخلة في قصيدته الشفة قد اخذ مني هذا البيت:

ذقت الثمار ونكهة ان لم تكن — هي نكهة العنب الشهي فأختها

فقد قلت في وحي الاربعين:

تنسمت من فيك ريح الثمار — او نكهة العنب الناضج
فلو كنت أطعمتني قبلة — لانبأتُ عن صدق الطازج

وقد اعجب الاستاذ العقاد بقصيدة الاستاذ الصافي النجفي وقال عنه: هذا شاعر حقاً، ولم يكد يقلب بعض الصفحات ويقع بصره على اسم الاستاذ صلاح الاسير حتى ترك نسخة «الاديب» والتفت اليّ كأنه يريد ان يقول شيئاً... فقلت:

ما رأيكم بما قال الاسير من انكم عقدة في الادب؟

فابتسم ابتسامة الساخر وارتفع صوته قائلاً: الرجل الذي يكون عقدة في الادب لا ينشر له اكثر من ثلاثين كتاباً، وتعاد طبعها، فكتاب ابن الرومي من اصعب الكتب فهماً، وبالرغم من ذلك فقد اعيد طبعه. فهذا الشخص، بقوله ذاك، يشهد على نفسه بأنه اقل فهماً من عشرات الالوف الذين يفهمونني، وكل من كان مثل صلاح الاسير لا بد ان يكون موقفه مني كموقفه، وانا متنازل عن اعجاب صلاح الاسير لشوقي لان شوقي اولى به..!».

وهكذا يصبح وقف «الاسير» امام العقاد مثل موقف الوف القراء من الاسير عندما يقراءون شعره، فقراء الاسير يتذمرون بأنهم لايفهمون هذه المعميات ويحارون كيف ينتقمون من شاعرهم، ولكنه انتقم هو من نفسه سريعاً عندما رأى في العقاد عقدة في الادب غير مفهومة، واحجية مغلقة في الشعر... وقد قال لنا العقاد: «انه اذا كان حقاً عقدة فهو يعرف ان يحل نفسه...» ويبقى صلاح الاسير عقدة بدون حل...

وحديث الشعر دفعني ان اسأل الاستاذ العقاد عن رأيه في شعراء الاقطار العربية في خارج مصر، فاجاب: الشعر الذي يصل الي من العراق وسوريا ولبنان قليل، ولكن يعجبني بعض العراقيين في جزالة الاساليب، كالشبيبي، ويعجبني من شعرائكم بشاره الخوري لولا انه اتخذ الرقة صناعة، فقد كاد يكتب على بطاقته «شاعر رقيق».

ثم عاد الى حديثه عما لفت نظره في «الاديب» الماضي فقال: يقول كاتب جولة الاديب عن مجمع فؤاد الاول للغة العربية ان اثر الادباء في هذا المجمع ضعيف، وهذا غير صحيح، فان اثرهم كان قويا منذ انضمامهم اليه واول اثر لنا فيه اننا قررنا في اول اجتماع عقدناه تقديم جوائز لخير الكتب التي تصدر في العالم العربي كله، وجوائز لاحسن القصص وجوائز لاجمل الشعر ايضاً. ونظرنا في مباراة وزارة المعارف للقصة وقدمنا ثلاث جوائز للفائزين، ونحن الذين اقترحنا هذا الاقتراح القيم. وليس هذا فحسب، فقد عهد الي المجمع ان اراجع مؤلفات كل كتاب الاقطار العربية بدون ان يطلب مؤلفوها وستقدم جائزة ضخمة لاحسن كتاب يقع عليه الاختيار، والحائل دون تنفيذ هذا العمل هو ميزانية الحرب فقط، وسيباشر به بعد الحرب سريعاً.

مع الاستاذ توفيق الحكيم

—هل تعتقد بوجود خصائص مميزة تفصل بين ادب العالم العربي في العصر الحديث؟ فاجأت الاستاذ توفيق الحكيم بهذا السؤال بعد ان دلني أحد الصحفيين الجالسين معنا في مقهى «الجمال» عن

المفتاح الذي يمكنني به أن اثير الاستاذ الحكيم الى الجواب !

فصحا الحكيم من شرود وعاد اليّ يعتذر بألم وحرارة قائلاً : لا استطيع ان اجيبك على سؤالك ، لأن هـذا الشخص الذي تراه أمامك ليس توفيق الحكيم الكاتب، بل توفيق حكيم آخر ، وأما الكاتب فيقيم في غرفة مقفلة ، وهو الذي يمكنه ان يجيب على ما تشاء من الاسئلة .

فقلت : وكيف السبيل للوصول الى توفيق الحكيم الكاتب ؟

قال : تكتب لي اسئلتك فأحملها اليه ، واعود بجوابه غداً .

فكتبت له مجموعة من الاسئلة ، وقدمتها له ، فطوى الورقة دون ان يطلع على ما فيها ووضعها في جيبه .

وعدنا في اليوم التالي ، فسألناه عن الجواب فقال : لم اجتمع بتوفيق الحكيم ...!

وهنا استعنت بالمفتاح الذي يدفع الاستاذ الحكيم الى الجواب والذي يستعين به الصحفيون المصريون ... وتكلم ابو الهول ..

« أرى ان الادب العربي وحدة متماسكة في ماضيه وحاضره ومستقبله لأن كل جيل انما يبني على مجهودات الجيل الذي قبله ، وان الاسس التي يشيد عليها كتابنا أدبهم العربي هي واحدة بدون ادنى شك ، والمعول عليه في تقدم الادب العربي وتطوره وتجدده هو حدوث النتائج التي تؤثر في مجراه بوصفه كتلة شاملة . وان كل تغير في الاساليب الادبية يحدث في بلد من البلاد العربية دون ان يكون له تأثير في مجرى الأدب العربي كوحدة، لايعتبر له قيمة كبرى . من أجل ذلك ، اعتقد ان الأدب العربي مثله مثل الادب الفرنسي او الانكليزي ، له حياته التي تتطور وتتجدد بمواهب ادبائه الذين استطاعوا بقوة شخصيتهم ان يؤثروا في مجراه وان يزيدوا في ثروته ، على ان اختلاف البلاد العربية في طبيعة أرضها ومناظرها وأحوالها لابد ان يكون له دخل في طابع الاسلوب الادبي لكل اديب . ولكن هذا الطابع ليس الا تلويناً شخصياً قد يميز الاديب عن الاديب حتى في البلد الواحد . ولكن المهم دائماً هو التأثير في مصير الادب العربي جملة مهما تكن الوسائل والاساليب التي يستخدمها الاديب في احداث هذه النتيجة.

— كيف ترى مستقبل الادب العربي بعد الحرب ، وما هي اتجاهاته التي ينبغي ان يتبعها ؟

— أرى ان مستقبل الأدب العربي بعد الحرب مضمون الازدهار لأنه لوحظ ان حالة السكون والقلق والانتظار التي دعت اليها الحرب ، حملت الناس على ان يهربوا بأنفسهم الى القراءة، فالشرق العربي قد تعود اليوم الاقبال على القراءة واعتبرها ضرورة من ضرورات الحياة المعنوية للفرد ، كما يعتبرها الاوربيون . وأظن ان هذه النظرة نحو القراءة ، وهذه العادة التي اعتادها العالم العربي سيمتد أجلهـا الى ما بعد الحرب ويكون من آثارها نشاط الحركة الأدبية العربية .

اما الاتجاهات التي سيتبعها هـذا الادب فأظن ان بوادرها قد ظهرت منـذ الآن فالادب العربي قد اتجه ، ويجب ان يتجه ، الى العناية بالناحية الفنية التي فصلتها في كتابي « زهرة العمر ».

فقطعت الحـديث وقلت : تريد ان تقول كتاب توفيق الحكيم المقيم في الغرفة في عمارة « ايموبيليا » ...

وتلقيح الادب ببقية الفنون أمر لا بد منه لحيوية كل غرس أدبي وانضاج ثمراته ، ومتى تم للادب العربي اكتمال ادواته الفنية فليس يهم بعد ذلك ان تستخدم هذه الادوات في انتاج ادب يصور الحياة الاجتماعية الفكرية او الشعبية او « العمالية » او ينزع الى مجرد خلق النماذج والمشاعر الانسانية فاتجاهات الادب الموضوعية (التي تتعلق بهدفه وموضوعه) تتغير تبعاً لنزعات المجتمع ، ولكن المهم هو ان الأدب نفسه ، كبيان وفن ، يصل الى أوج كماله وجماله ويؤثر في الناس ، ويرقى بهم مهما اتخـذ من منـاهج والبس من موضوعات .

— هل ترى ان تؤدي المسرحية غرضاً قومياً ام تقتصر على الفن؟

المسرحية عمل فني قبل كل شيء ، فاذا استطعت ان تصنع عملاً فنياً صحيحـاً فلا ضير عليك بعـد ذلك ان يكون هدفك الاصلاحي القومي او الاجتماعي او الشعبي ، والعكس غير مقبول، أي انه لا يجوز للفنـان الذي يحترم نفسه ، والاديب الذي يطمع في الخلود الادبي ، ان يصنع عملاً معـدوم القيمة الفنية ، بحجة الاغراض القومية والوطنية ... ذلك ان الغاية لا تبرر الفن ..

— هل تعجب بالمعري في موقفه من المرأة ؟

موقفه من المرأة هو حقاً موقف يدل على توفيق حكيم ...!

وكان يريد ان يسترسل في حديثه ، ولكن دخل المطرب المعروف الاستاذ محمد عبد الوهاب ، وكان قد قضى شطرا طويلاً من النهار وهو يفتش عن الاستاذ توفيق الحكيم دون جدوى فلم يكد يراه حتى تنهد ، ثم تنفس الصعداء ... فرأيت من واجبي ان اساعد الاستاذ محمد عبد الوهاب مادام نتيجة توقف الاستاذ الحكيم عن الاجابة سيعود على رواد الفن السينمائي والغنائي بتحفة فنية من تأليف توفيق الحكيم وتمثيل محمد عبد الوهاب .

مع حسن حسني عبد الوهاب باشا

عضو مجمع فؤاد الاول للغة العربية

لا نكاد نعرف شيئاً في ايامنا الحاضرة عن الحياة الفكرية في شمال افريقيا ، فظروف الحرب ابعدتنا عن الاتصال بتلك الاقطار ، والصحف التي تصدر في تلك البلاد لا يصل منها شيء الى الشرق العربي ، ولاشك ان لقاء حسن حسني عبد الوهاب باشا عضو مجمع فؤاد الاول فرصة عزيزة يجب ان لا تفوت ، واقول عضو المجمع ومندوب تونس فيه ، لانني اشفق على نفسي من ذكر القابه السياسية والادارية ، فخير عندي الف مرة ان اقابله ، وهو عضو في مجمع اللغة ، على ان اقابله وهو امير الامراء في تونس ووزير القلم والاستشارة فيها ايضاً (اي وزير الداخلية) . وهكذا كان ، فقد اعلنت له انني اخاطبه كمندوب لغوي لتونس في مجمع فؤاد ، وسألته هذا السؤال الذي يسأله كل قارىء للادب :

— كيف تكون الحياة الفكرية في تونس ؟

فاجاب : في تونس معهد ديني هو المعهد الزيتوني ، او جامع الزيتونة ، وهو شبيه بالازهر من ناحية النظام المتبع في التدريس ، وهو من اكبر معاهد شمال افريقيا ، وطلابه لا يقلون عن ٣٥٠٠ طالب . والمتخرجون منه من الشبيبة لهم ميل شديد الى الكتابة والبحث ، والى الادب .

والمغرب ، بوجه عام ، لا يزال متأثراً بالادب الاندلسي او الادب المغربي القديم . وعندنا مجموعة من الشعراء الشباب على رأسهم شيخ الادباء الشيخ محمد العربي الكابادي ، وهو رجل متين في اللغة العربية وفي الشعر . واعتقد انه اكبر حافظ موجود في العالم العربي كله ، مشرقه ومغربه ، يسامر اربع ساعات بدون ان يفتر او يتردد . ويحفظ الشعر الانـدلسي وكثيراً من شعر المشارقة القدماء ، عن ظهر قلب ، ويروي كتاب نفح الطيب باجزائه الثلاثة حفظاً . كما يحفظ دواوين شعراء الشرق المعاصرين كحافظ وشوقي والرصافي . ويلتف حوله الادباء الشباب ويتأثرون به ويتتلمذون عليه .

ومن شعراء تونس اليوم « محمد طاهر القصّار » ولقبه اقباسرة موجودة في سوريا ولبنان ، ونور الدين بن محمود ، ومحمود ابو رقيبة ، وجلال الدين النقاش ، وعبد الرزاق كراباكا ، وغيرهم كثيرون . ولدينا شعراء باللغة الفرنسية متفوقون .

وفي تونس مجلتان ، المجلة الزيتونية ويخرجها جماعة من الزيتونيين الكتاب ، ومجلة الثريا . واما بقية المجلات فقد منعتها قلة الورق في الوقت الحاضر من الظهور ، مما اضطر شعراء تونس الى نشر شعرهم في الصحف اليومية .

وتعلمون انه كان في تونس شاعر توفي منذ سبع سنوات ، وكان من انبغ الشعراء في الشرق وهو ابو القاسم الشابي ، وينشر الآن ديوانه . وقد مات صغيراً لا يتجاوز الـ ٢٧ سنة . ويوجد في تونس بعض الكتّاب الذين اود عند عودتي ان يرسلوا اليكم مقالاتهم عن تاريخ الادب التونسي في القرن العشرين .

وتطبع المجلة الزيتونية الان ديوان الورغي ، وهو شاعر تونسي ممتاز مات ١١٩٠ للهجرة .

والى جانب الادب نشأ عندنا عدد من الفنانين المصورين ، ولعل انبغهم الان هو شاب مصور اسمه جلال الدين بن عبدالله وقد تخصص بالمنياتور على الطريقة العربية .

— هل يوجد مجامع ادبية تجمع شمل الادباء في تونس ؟

فقال سعادته : المجامع الادبية في تونس كثيرة ، واكبر نادٍ يضم اضخم مجموعة من الادباء هو الجمعية الخلدونية ، ولها قاعة واسعة تلقى فيها المحاضرات . ويقدم الشيخ العربي كل اسبوع سلسلة من المحاضرات عن تاريخ الادب العربي وخاصة تاريخ الادب الاندلسي .

— ما هو مدى اتصال تونس بالادب العربي الحديث ؟

ان اتصال تونس بالادب العربي الحديث هو اتصال تام بكل ما يطبع في الشرق العربي على الاطلاق ، كل المجلات الادبية تصل الى هناك ، ولم يعرقل انتظامها الان الا الحرب .

— ما هي نسبة المتعلمين في تونس ؟

ان نسبة المتعلمين هو ١٥ بالمئة ، وهي نفس النسبة الموجودة في مصر .

وشكرت عبد الوهاب باشا على هذه المعلومات القيمة عن تونس ورحبت به مقدماً عن زيارته التي سيقوم بها الى لبنان وسوريا بعد اشهر قليلة ليمثل تونس في مهرجان المعري ، وقال بأنه سيرافقه في هذه الزيارة كبير شعراء تونس الشيخ محمد العربي .

« برهي »



سياسة التعليم في مصر

للاستاذ اسماعيل محمود القباني عميد معهد التربية – ١٦٥ صفحة – لجنة التأليف والترجمة والنشر

لعل ميدان التعليم في مصر من أخصب الميادين العلمية نتاجاً وأكثرها قابلية للتطور والاصلاح . فمنذ أكثر من خمس عشرة سنة تسيطر على هذا الميدان يقظة فكرية شاملة ، يحمل لواءها الاخصائيون العائدون من اوروبا وامريكا ، والمثقفون بأحدث المذاهب التربوية وأجداها . ويساهم فيها اساتذة المعارف الفنيون الذين استفادوا من تجاربهم وخبراتهم في التعليم ، وأوتوا حظاً من الفهم لمشاكل البيئة المصرية لم يؤته اولئك الذين عاشوا زمناً طويلاً بعيدين عنها . ولم يكن موقف وزارات المعارف المصرية سلبياً من هؤلاء الاخصائيين العائدين من الخارج ، او اولئك الفنيين المتواضعين الذين ثقفوا على أنفسهم . فقد شجعتهم جميعاً ، وألفت منهم اللجان المختلفة لدرس حالة التعليم ، وامدتهم احيانا باخصائيين اجانب استدعتهم من سويسرا وانكلترا ، وانفقت في سبيل ذلك مبالغ طائلة لا نعتقد انها ذهبت سدى . ولقد شمل هذا النشاط بعض وزراء المعارف انفسهم ، فرأينا لاول مرة وزير معارف مصري يضع تقريراً فنياً وافياً عن اصلاح التعليم الثانوي(١) وتقريراً آخر عن توجيه التعليم بايتلاءم ومستقبل مصر ومركزها في العالم(٢). اضف الى هذا نشاط اللجان الفرعية التي عينتها الوزارات المختلفة لدرس كل مرحلة من مراحل التعليم والعناية بالمناهج ومرونتها ووضع احدث الاساليب التوجيهية للتعليم الفني . ثم ما ألف من كتب عامة في هذا الموضوع ، ككتاب « مستقبل الثقافة في مصر» للدكتور طه حسين ، والكتاب الذي بين ايدينا اليوم «سياسة التعليم في مصر» للاستاذ اسماعيل محمود القباني عميد معهد التربية في القاهرة .

(١) وزارة المعارف العمومية : « التعليم الثانوي » عيوبه ووسائل اصلاحه .

(٢) وزارة المعارف العمومية : « تقرير عن اصلاح التعليم في مصر » .

وكتاب سياسة التعليم في مصر مظهر من مظاهر هذه اليقظة التي عنيناها وثمرة من ثمار التجارب الحديثة التي يجريها المؤلف في مدارس مصر منذ اكثر من خمس عشرة سنة . والاستاذ القباني في طليعة علماء التربية العمليين . ولعله اول من درس مقاييس الذكاء ، ومصّرها واجرى عليها التجارب الواسعة ، كما انه في مقدمة الفنيين الذين اكتسبوا ثقافتهم بالخبرة والمران وطبقوا العلم على العمل . فلقد شغل عدة مناصب في وزارة المعارف . فكان مدرساً فناظراً (مديراً) ثم مفتشاً ، واخيراً عميداً لمعهد التربية العالي في عهده الجديد وهكذا نستطيع ان نطمئن الى ان كتابه هذا هو صورة مصغرة عن المراحل التي مرت بها نهضة المعارف المصرية الحديثة .

قوام هذا الكتاب في الاصل ، محاضرتان تبحثان في السياسة العامة لنشر التعليم في مصر ، القيتا بمناسبة صدور تقرير معالي وزير المعارف احمد نجيب الهلالي باشا عن « اصلاح التعليم في مصر » . ولما اتجهت نية المؤلف الى وضع هذا الكتاب ادخل على المحاضرتين تعديلات جديدة لم تمس الفكرة الاساسية فيها وأضاف اليها فصولا جديدة وتقريراً آخر كان وضعه سنة ١٩٤٠ عن حالة التعليم الالزامي ووسائل اصلاحه . وهكذا سوى من هذه المجموعة كتابا يصح ان يعتبر اول محاولة رسمية كما نذكر ، لرسم سياسة عملية جديدة لمستقبل التعليم في مصر . يشتمل الفصل الاول من الكتاب على مقدمة تاريخية يستعرض فيها المؤلف المراحل التي مرّ بها التعليم في مصر من عهد محمد علي باشا . فيحدثنا عن تطور الكتاتيب الى مدارس اهلية ابتدائية ، وما ساير هذا التطور من ظروف في عهد الخديوي اسماعيل باشا . ثم يقفز بسرعة الى سنة ١٩٢٣ ، سنة صدور الدستور المصري ونصه على جعل التعليم الاولي الزامياً ومجانياً لجميع المصريين . ويعتبر هذا النص ، في نظر المؤلف ، نقطة تحول في تاريخ السياسة التعليمية بمصر ، اذ اجتاحت وزارة المعارف حين ذاك هزة عنيفة امتدت الى كل مراحل التعليم وفروعه . ثم يحدثنا المؤلف بمناسبة ذكر التعليم الالزامي عن فشل هذا النوع في الماضي والحاضر ، واخفاقه في تحقيق الغرض الواسع المقصود منه ، وهو تنمية قوى الاطفال وتنوير اذهانهم . او الغرض الضيق الذي لا يتعدى محو الامية . وينتهي المؤلف من هذه المقدمة التاريخية بنقطة تحول

ثانية هي سنة ١٩٣٥ يوم صدر تقرير معالي الهلالي باشا عن اصلاح التعليم الثانوي ، فكان اول صيحة قوية دعت الى الاهتمام بالكيف قبل الكم . ويتناول المؤلف في الفصل الثاني روح التعليم والأسس الفلسفية التي ينبغي ان تستند اليها . وهي في نظره ، لا تتعدى المبادىء الديموقراطية نفسها . تلك المبادىء التي ترسم للحياة اسلوباً شاملاً يتناولها من جميع نواحيهـا و يقوم على احترام حرية الفرد وتقدير شخصيته . ولا يسترسل المؤلف طويلاً في شرح هذه المبادىء اذ سرعان ما تعاوده النزعة العملية ، فيبحث على ضوء تلك النظريات حاجات النهضة المصرية في مرحلتهـا الحاضرة . ويرى المؤلف ان طريقة المشروعـات هي أفضل الطرق التربوية الحديثة التي يصلح ان تحقق رسالة التعليم على أكمل وجه . فهي تحول ميول الاطفـال العملية المنظمة الى ميول فكرية تعتبر اساساً للدراسة العلمية المنظمة . ونحن مع احترامنا لرأي المؤلف واعجابنـا بطريقة المشروعات نرى انها من اخطر الطرق استعمالاً اذا لم تتهيـأ لهـا الظروف والتجهيزات ، ويشرف على تطبيقهـا معلمون فنيون من ذوي الخبرة والنشاط الدائم . فكما ان هذه الطريقة تشبع النزعة العملية في التلاميـذ وتغذي ميولهم ، فهي كذلك سبيل واسع لانفاق اكبر جزء من وقتهم لاكتساب اقل ما يمكن من الانتاج والمعرفة ، وقد لاحظنا بأنفسنا هذا التفاوت في فوائـد الطريقة ومضارها عندما رأيناها تطبق في المدرسة النموذجية الملحقة بمعهد التربية . فكم من « حصص » مرت لم يقم فيها بعض التلاميـذ بأكثر من دق مسمار في خشبة .

ويرجع المؤلف اخفاق التعليم في خلق الروح التي يريدها لمصر ، الى وجود سببين : اولهما انعدام الاستقرار والاستمرار في شؤون التعليم ، وثانيهما المركزية الخانقة المسيطرة على التعليم .

ويبحث المؤلف في الفصل الثـالث ضرورة تعميم التعليم بين طبقات الشعب . فيحمل على الطريقة المتبعة لدى وزارة المعـارف اليوم في تخصيص النفقات الباهظة للتعليم الخاص الذي يقتصر اثره على فئة محدودة من ابناء الشعب ، بينما يحرم الملايين حق التعليم الاولي لضآلة مخصصاته . فعدد التلاميذ المصريين الذين هم في سن التعليم الالزامي يبلغ ٢،٣٠٠،٠٠٠ طفـلاً وطفلة خصص لهم ٢،١٠٠،٠٠٠ جنيه بينما خصص ٢،٨٠٠،٠٠ جنيـه للتعليم الخاص والجامعة رغم ان عدد الطلاب والطالبات في هذه المدارس لا يتجاوز المائة الف . وبعد ان يبرهن المؤلف على صحة نظريته بما يجري في معظم دول العـالم يخلص الى اقتراحه بوجوب جعل اعتمادات التعليم الالزامي ثلثي مجموع ميزانيات التعليم على الاقل .

وكما يرغب المؤلف في تعميم التعليم الالزامي يرغب كذلك في رفع مستواه وربطه بالتعليم الثانوي والعالي . وهكذا يخلص الى الفصل الرابع حيث يبدي اقتراحـاته العملية عن تنظيم مراحل التعليم وتقسيمها حسب العمر . فيقدم لنا فذلكة عن مراحل التعليم في انكلترا وعلاقة سن الطلبة بها . وفي هـذه الفقرات معلومات طريفة تهم الراغبين في الاطلاع على سير التعليم بانكلترا . ولقـد كان للنظام المتبع في انكلترا اثر كبير في اتجاه التفكير التربوي بمصر . اذ ان مذكرة معهد التربية الى وزارة المعارف سنة ١٩٣٤ واقتراحاته عن تنظيم مراحل التعليم تعتمد على اقتراحـات لجنة « هادو » الانكليزية في تقسيم التعليم الى مراحله المعروفة اليوم . ولقد دلت التجارب على ان التقسيم المطبق في انكلترا ، والذي اقترحه المعهد لمصر ايضاً لا يلائم حاجات المصريين التربوية . ولهذا ينقد المؤلف تلك المقترحات مستنداً الى معلوماته الخاصة والى ماجاء في تقرير بعض لجان المعارف مما يؤيد وجهة نظره .

يرى الاستاذ القباني ان يقسم التعليم العام في مصر الى ثلاث مراحل ، مدة كل منها اربع سنوات ، وان تخصص لكل مرحلة مدارس مستقلة . فالمدارس الابتدائية لمرحلة الطفولة من سن ٦ الى ١٠ . تتبعها المدارس الوسطى لمرحلة المراهقة وتكون حدود السن فيها من ١٠ الى ١٤ سنة . ثم المدارس الثانوية لمرحلة البلوغ من سن ١٤ الى ١٨ . وينبغي ، في نظره ، ان يستلهم التعليم في المدارس الابتدائية الجديدة روح التعليم في رياض الاطفـال التي يتعـذر انتشارها في مصر . وان يكون مشتركاً للبنين والبنات ، يعهد بالتدريس فيه الى معلمات فنيات ، ويتبع نظام « معلم الفصل » لا « معلم المادة » اما المدارس الوسطى فعليها ان تهيء الوسط الاجتماعي الملائم لنمو شخصية الفتى ، وتوجيه ميوله الاجتماعية توجيهاً صالحاً ، والعناية بتوسيع دائرة خبرته ومدى فهمه لطبيعة الاشياء . ويراعى في المدارس الثانوية شعور الفتى بشخصيته شعوراً قوياً ، ونزوعه الى الاستقلال في تفكيره وتصرفاته ، وتطلعه الى حيـاة الرجولة المستقبلة . ثم يتوسع المؤلف في درس فوائد كل مرحلة من هذه المراحل ومزاياها ، وكيف يجب ان يوجه التعليم فيها . كل ذلك باسلوب واقعي واضح قوي الحجة . ويعتبر هذا الفصل ابرز اجزاء الكتاب من حيث توجيه سياسة التعليم العامة في مصر توجيهاً حديثاً على ضوء التجارب السابقة التي مر بها التعليم .

ونجتاز الفصل الخامس بسرعة حيث يذكر المؤلف العوامل

التي يجب ان تتخذ أساساً لانتقاء التلاميذ ولا سيما في التعليم الثانوي .

وننتهي الى الفصل السادس وعنوانه « طريقة التنفيذ » . وفيه يعد المؤلف الافكار ويهيؤها لقبول مقترحاته الجديدة . فهو يعترف بوجوب اعداد العدة قبل الشروع بتنفيذ أية سياسة تعليمية جديدة . وقوام هذه العدة تحضير المعلمين الذين يجب ان يؤخذوا من خريجي معهد التربية للتدريس في المدارس الوسطى والثانوية . اذ انه المعهد الوحيد في مصر الذي يسير على أحدث النظم لتخريج المعلمين والذي له من مرونة نظامه ما يسمح له بالتطور تبعاً لما يتبينه من حاجات التعليم واتجاهات المعاهد المماثلة له . اما معلمو المدارس الابتدائية الجديدة فيؤخذون من دور المعلمين بعد ان توجه توجيهاً جديداً يساير الزمن ويضمن الفائدة المتوخاة منها . والمؤلف لايرى بأن مشروع تنظيم مراحل التعليم الجديد الذي يقترحه يمكن ان يتم قبل عشرين سنة او ان يحقق اذا لم تخصص له موازنة تقرب من ٢٠ مليوناً من الجنيهات كل عام وبعبارة أوضح ، ما يقرب من ربع الموازنة المصرية . ولهذا يرى ان الشروع بالتنفيذ يجب ان يتم على مراحل . فكلما فتحت عشرة مدارس ابتدائية جديدة مثلاً وتأمن سير العمل فيها ، اقفلت المدارس الاولية والابتدائية القديمة التي كانت تقوم مقامها . وهكذا الى ان يأتي الزمن الذي تنتشر فيه المدارس الحديثة المقترح انشاؤها . وهكذا قل في المدارس الوسطى الثانوية . وينتهي المؤلف بعد هذه الفصول الستة الى « تذييل » ينشر فيه تقريره الذي قدمه الى وزارة المعارف عن حالة التعليم الالزامي والاسس التي ينبغي ان يقوم عليها اصلاحه .

وننتهي من قراءة كتاب « سياسة التعليم في مصر » ونشعر، مع الاستاذ القباني ، بأن المشاكل التعليمية التي تواجهها مصر ، لاتختلف كثيراً عن المشاكل التعليمية التي نواجهها نحن في لبنان وسوريا والتي يواجهها العراق كما نعلم . ونحس بان كتاب الاستاذ القباني يصلح ان يتخذ اساساً لاصلاح التعليم ، لا في مصر فحسب، بل في البلاد العربية . وان من واجب المكاتب الحديثة التي تنشأ اليوم في مصر والعراق وسوريا ولبنان لتحقيق فكرة التعاون الثقافي ان توليه اهتمامها وتجعله موضع عنايتها .

شفيق نقّاش
مجاز بالتربية وعلم النفس

جميل بثينة

للاستاذ عباس محمود العقاد — ١٥٢ صفحة — سلسلة اقرأ (١٣)

من يقرأ العقاد قراءة مستمرة ، تتضح له في كل فصل من فصول الكاتب ، سواء كان دراسة شخصية ام دراسة انتاج ام خلق فكرة وتكوين رأي ، ميزات خاصة ، وخطوط معينة ، وخصائص ذاتية ، يمكن ان تمثل في حق « مدرسة » قائمة بذاتها لها مذهبها وسماتها ومناحيها .

ولا شك ان ابرز هذه السمات واوضحها « المنطق » . فان هذه الخاصة تطغى طغياناً يكاد يُلاشي احياناً سائر الخصائص حتى ليمكننا ان ندعو هذه المدرسة « بالمدرسة المنطقية الحديثة » .

فالتفكير كله مبني على قاعدة المنطق في هذه المدرسة، وحتى التفكير السهل اللين الذي يمكن ان يتقبله العقل ويتفهمه حق التفهم ويقره بسهولة لقربه من الادراك الحدسي .

ومهما بلغ هذا الادراك من سرعة ودنو ، فلا بد ان يرجع به المنطق الى اولى مراحله فيقوده قيادة منظمة ، تسعفها الحقائق والوقائع الثابتة ، ويجتاز به سائر المراحل على تحقق وتبصر .

ومن الطبيعي بعد ذلك ان يبلغ هذا الادراك مبلغاً عظيماً من الانكشاف والوضوح اللذين يبعثان جواً من الاطمئنان ، بل جواً من اللذة والنشوة المعنوية .

على هذه القاعدة يجري الاستاذ العقاد في درس دروسه، وبحث بحوثه ، فلا يعتمد في الوصول الى اثبات رأيه على حقائق اكتفى الناس بالتواضع عليها ، بل يحرص دائماً على ان يبحث هذه الحقائق نفسها : اي على ان يبحث كيفية تحققها ، ولو كانت اسهل ما يقبله العقل .

ولهذا امتاز اسلوب بحثه بتلك الطريقة التحليلية التي ترتفع شيئاً فشيئاً في مدارج الفكرة المنطقية الصحيحة .

ولهذا ايضاً ، لم يكن من العجب ، ان يخلق هذا التفكير لدى القاري ، ثقة تامة بكلام الكاتب ، وايماناً لا يشوبه شك بما يقول، فتمتلىء نفسه وفكره بذلك الرأي المشبع بحثاً ومنطقاً .

وهذا ما يلمسه القاري في « جميل بثينة » : التدليل مرتكز على الوقائع ، والتعليل على الحقائق المنطقية . ولكن هل هذا الكتاب دراسة ادبية ، ام تأريخ ادبي ، ام دراسة نفسية ؟ ليس هو واحداً من هذه فقط ، بل هو كلها . انه دراسة ادبية في فصلي « احسن الغزل » و « مكانة جميل في الصناعة الشعرية » وهو تأريخ ادبي في فصول « عصر جميل » و « من هما » و « بعض اخباره » وهو اخيراً دراسة نفسية في فصول « عشق جميل وبثينة »

و « مزاجان » . ولكن ليس بين هـذه الاقسام حواجز لا تقبل الخرق ، فهي متممة بعضها الآخر بحيث ان الكتاب يكون ناقصاً لو لم يجمع هذه الفصول . ومعنى هذا انه كتاب جامع ، ولو كان صغير الحجم . وحبذا لو يتبع مؤرخو الادب عندنا طريقة العقاد ، اذن لجعلوا الطلاب والدارسين يقفون وقوفاً تاماً على الدرس المطلوب . فانه لا يكفي ان نؤرخ حياة الشاعر او الناثر ، كما انه لا يكفي ان نجمع الى التأريخ دراسة الخصائص ، اذا لم نرفق ذلك كله بدراسة استنتاجية عامة لنفسية هذا الشاعر او الناثر .

هذا ، بصورة عامة ، ما يبعثه «جميل بثينة» في نفس القاري . اما الملاحظ ، بصورة خاصة ، فالتمهيدات البارعة لكل فصل من فصول الكتاب ، والاستنتاجات الدقيقة الصحيحة .

ففي الاولى يخلق الكاتب الجو الملائم لتقبل القصة او الرواية او الرأي الذي يرتأيه . وبوسع القاري ان يلمس بوضوح ان المؤلف يعلق اهمية كبرى على البيئة والزمان ، ويدرسها دراسة مستفيضة على اضواء الحوادث ، ثم ينتهي من هذه الدراسة الى رسم تيارات عامة ، يطبق عليها بعدُ خصائص او قل امثالا خاصة ، كما فعل حين دال على ان عصر جميل كان طبيعياً ان ينشأ فيه الغزل ، وحين استعان ببعض الروايات كرواية مصعب بن الزبير . وقل مثل ذلك في التمهيد لفصل عشق جميل وبثينة . فالحق ان العقاد يبلغ في هذه التمهيدات حداً بعيداً من البراعة والدقة والتعمق .

اما الاستنتاجات والتعاليل ، فتدل على ان العقاد مؤرخ ادب من الطبقة الاولى ، فهو لا يدع لفتة الا ويستغلها ، ولا رواية الا ويستنفد محتوياتها بالاستنتاج الصحيح .

ثم ان المؤلف في ذلك مجدد ، اعني لم يسبقه احد الى تلك الاستنتاجات : فقد انتهى مثلاً من تناقض الرواة في اخبار جميل وبثينة الى ان القصة حقيقية واقعة . مع ان الذي يتبادر الى الذهن ان في هذا التناقض نفسه نفياً للحقيقة ، وكذلك القول فيما ذهب اليه من ان الهوى بين جميل وبثينة لم يكن خلواً من نزعات الجسد ولا من الشك والريبة وتهمة الخيانة من الجانبين . في حين ان جميع مؤرخينا ذهبوا الى ان الهوى بينهما كان بريئاً الى اقصى حدود البراءة . ومن شاء ان يطلع على بعد نظر المؤلف فليقرأ توفيقه بين هوى جميل العذري وهواه الجسدي ، وجعل ذلك غير خارج على حدود الطبيعة ، وليقرأ رده على الدكتور طه حسين في هذا المعنى .

سهيل ادريس

متن اللغة

معجم جديد للاستاذ احمد رضا – ٨٠٠٠ صفحة – مخطوطة

كنت اروم ان اتسع بالكلام عن تاريخ المعجمات العربية ، فاتناول منها كيف بدأت والاسباب التي هيأت اليها وكيف كان تقييد الرواة لمفردات اللغة وشواردها . ولكني اقصرت لما ان الموضوع تناولته كثرة مستشرقة وعرب ، بيد اني اشير هنا الى ملاحظة بدت لي في تاريخ المعجمات قد تعبر عن ناحية غامضة وتفسرها بعض الشيء .

وهي ان فكرة المعجمات كانت نحوية اي من صنيع نحويين ومنتزعة من صميم اختصاصهم ، فلم تكن في خاطرة الرواة ومن اليهم ممن اتسموا بالنحو الى جانب الرواية ، وبعبارة ادق عند طبقة النحاة الذين كانوا قبل ان يصبح النحو علماً باصول .

فكان علينا اذن ان نترك سراعاً ما قبل الخليل ونقف عنده ، لانه اقدم من عرف له معجم واسع المادة يتناول من اللغة اشياءها الجمة في شيء من الحصر او في حصر حقيقي على الحروف :

ولكن من الضروري هنا ان نتساءل في تحرٍ وحذر عن فكرة الكتاب وكيف نبتت ونمت في نفس الخليل واستقل بعملها ، وهو تساؤل جدير بالدرس وجدير بتوفير النظر الخليقين بان ينكشف من بعدهما سر الكتاب . ونحن في غير اطمئنان الى الشك نجد مما يقوي فكرته وجوهاً :

١ – خروج الكتاب عن يد فارسية بحتة مما لا يكون بعيداً معه ، الظن بانه نتيجة جهد غير عربي او على الاقل لا يفكر بفكر على طراز عربي خالص .

٢ – ترتيب الكتاب الفذ ، فهو يبتدع في ترتيبه نهجاً غامض القصد روج لفكرة أنه ينظر الى نهج تقليدي عن السنسكريتية ، فقد ورد في دائرة المعارف الاسلامية ان الخليل تبع في ترتيب معجمه طريقة النحاة السنسكريتيين في ترتيب حروف لغتهم ، فان حروفها تبدأ باحرف الحلق وتنتهي بالاحرف الشفوية ، وهو قد رتب كتاب العين على الحروف مبتدئاً بحروف الحلق فاللسان فالاسنان فالشفتين .

٣ – تطلع المحيط العلمي الى آثار الخليل حتى في عصره وعنايته الشديدة بها ، فلم يكن مغموراً كما تشاء بعض كتب التاريخ تصويره ، بل كان شاغلاً الناس ومالئاً الفراغ كما يظهر من حكاية ذكرها ابو الهلال العسكري ، ومن شغف الشخصيات بالاجتماع

اليه ومنادرته كابن المقفع، ومن الحاح الامراء بتقريبه كالعباس ابن محمد [1] مما هو تقدير شاهد عبقريته.

وهذا التطلع يقضي بانتشار الاثر ولا سيا اذا كان يحوي مفاجأة حقيقية مثل كتابه، فتأخر ظهوره الى حدود سنة ٢٥٠ ه ننطوي منه على حذر، تجتمع اسبابه على ظن ان يكون لمدرسة البصرة فرع نشأ في فارس ينتظم الليث وجماعة كبيرة، قام على تمجيد ذكرى الخليل وشرح تراثه ولكن تناولوه بعقلية غير عربية وذهنية دربت على غير نحويتها، ومن ثم يظهر كيف تأثر الكتاب بفكرة سنسكريتية — قد تكون — عن هذا الطريق.

واما الخليل، فأبعد ما يكون عن ظن التأثر في كل ماانكشف عنه من ايجاء عبقري في العروض في اللغة في الاشتقاق، وهو عندي مثل اعلى مما يمكن للعبقرية العربية ان تقدمه بين مثلها العليا.

والذي ننتهي به هو ان الكتاب ليس من تصنيف الخليل على صورته، وان كانت افكاره الرئيسية من افكار الخليل اخذت صوغاً آخر واملاء طريفاً. هذا من جهة ومن جهة اخرى ينكشف لنا كيف وقعت فيه الاخطاء التي اخذت عليه، وقال عنها ابن جني انها لا تقع من اصغر تلاميذه فضلا عنه.

وبهذه المناسبة اذكر ان اشد المنكرين الحاحاً في ان يكون من عمل الخليل هي مدرسة الخليل واعلامها، مما يبدو مستبعداً جداً ما ظنه الدكتور محمد ابو شنب كاتب المقال عن الخليل في الموسوعة البريطانية، من ان الحسد للخليل هو الدافع الوحيد لانكار نسبته اليه.

هذا ماتستطاع فهمه من نتف النصوص المحفوظة، وما علينا ان يكون من عمل الخليل ما دمنا نقرر انها افكاره مشروحة على نهج غريب. ومن ثم نتخلص الى تصنيف المعجم على مناهج ثلاثة :

أ — منهج الخليل في العين : واعظم ما ظهر عليه (التهذيب) لابي منصور محمد الازهري الهروي المتوفى سنة ٩٨٠ م، و(المحكم) لابي الحسن علي المعروف بابن سيده الاندلسي المتوفى سنة ١٠٦٦ م.

ب — منهج ابن فارس في مقاييس اللغة : الذي لا اعلم احداً سبقه الى الوضع على منواله، وفيه يبدو نوع من تقدم اللغوية العربية وجنوحها نحو التهذيب والسهولة والتصنيف، وهو مرتب على الاول والثاني من الكلمة بعد تجريدها من الزوائد. واهم ما ظهر عليه (المحيط) لكافي الكفاة ابي القاسم اسمعيل المعروف بالصاحب ابن عباد المتوفى سنة ٩٦٦ م، و (الاساس) لابي القاسم محمود الزمخشري المتوفى سنة ١١٤٣ م.

ج — منهج الجوهري في الصحاح : وفيه تتمثل العقلية اللغوية على تمام قوتها وملكة التصريف المتفلسفة، واهم ما ظهر عليه (العباب) لابي الفضائل الحسن الصغاني المتوفى سنة ١٢١٢ م، و (لسان العرب) لجمال الدين ابي الفضل محمد المعروف بابن المكرم المتوفى سنة ١٣١١ م و (القاموس) لمجد الدين ابي الطاهر محمد الفيروزآبادي المتوفى سنة ١٤١٤ م.

هذه نتف ولا يعنينا ما قبلها كثيراً لانه لا تجدد به كلمة المعجم، وانما تدخل في موضوع الاسباب التي هيأت اليه.

وبعد فالمعجمات العربية احصوا على كثير منها طائفة من المآخذ، مثل الشروح الدورية وعدم التنبيه على الغريب والمهمل والمحرف والمصحف، والتحديدات غير الدقيقة في النباتات والحيوانات والبقاع.

ولذا فكر اللغويون المحدثون باصلاح المعجمات القديمة او وضع غيرها وكان من اوائلهم المرحوم النجاري بك الذي عمد الى لسان العرب ورتبه على اساليب المعجمات الأفرنجية، وكذلك المستشرق الانكليزي الكبير (lane) الذي عمد الى القاموس الفيروزآبادي فنقحه وزاد عليه فيما اسماه (مد القاموس)، واقدم بعض الشاميين على وضع معجمات جديدة خصوها من القديمة، ومن احسنها ترتيباً وتأليفاً (محيط المحيط) و (قطر المحيط) للبستاني و (اقرب الموارد) للشرتوني و (المنجد) للاب لويس المعلوف اليسوعي.

غير ان هذه المعجمات الجديدة لم تسلم من المآخذ، فاما محيط المحيط وقطره فلا يمدحان الا لترتيبها وفي غير ذلك يشتركان فيما اشتركت فيه القديمة من العيوب، على انها مزيج من الالفاظ العربية والدخيلة والمولدة. واما اقرب الموارد فهو احتذاء وتقليد لمحيط المحيط، الا انه افضل منه تنسيقاً وتدقيقاً واكثر استيعاباً للشوارد المبعثرة في دواوين الادب وكتب اللغة، على انه لا يخلو من عيوب مثل اغفاله الاماكن والبقاع واعلام القبائل والاشخاص ومثل ذكر المولد والدخيل وترك كثير من المفردات اللغوية، وكثرة مابه من ذيول تجر الى ذيول وفهارس للتنبيه والتكملة والتصحيح والاستدراك. واما المنجد فهو نموذج احسن للمعجم المدرسي، ولكن فيه عدداً كبيراً من الاوهام اللغوية، وكذلك القول في البستان وفاكهته للمرحوم الشيخ عبدالله البستاني وان يكن اقدمهم في اللغة. واخيراً انصرفت رغبة اللغوي الكبير الشيخ احمد رضا العاملي، الى اعداد معجم عربي جديد، حاول

(1) راجع ديوان المعاني للعسكري ج1 ص18

فيه – ونجح الى حد بعيد – ان ينجو مما وقع فيه سواه ، فحقق كثيراً وجهد كثيراً في ان يقدم للناطقين بالعربية قاموساً يسد نواحي النقص . فعني في درجة قصوى بمقابلة النصوص ومقارنتها ، ثم عرضها على الادب المحفوظ حتى استوت وقدمها خلاصة سائغة .

وقد تهدى الى طريقة فذة لمعرفة التصحيف ، وذلك باحصاء الحروف المتعاقبة والتي في حكمها ، ثم عرض الكلمات التي هي مظنة التصحيف عليها ، فاذا كانت من حروف المعاقبة قطع بانها لغة ولهجة والا فهي تصحيف حتماً .

كما افادته هذه الطريقة الطريفة المبتكرة فائدة اخرى لها قيمتها في درس كلمات العربية الدراجة ، فقد توصل على ضوئها الى معرفة الاصل الفصيح لكثير من الكلمات العامية بما دخلها من تعاقب . ولكي لا يقع بما وقع فيه اللغويون المحدثون ، أفرد جزأ خاصاً بالعامي الفصيح والمولد ، كما حدد الفاظ النبات والحيوان والاماكن والبقاع ، ثم اتسع لكثير من الكلمات التي اقرتها المجامع اللغوية للمسميات العصرية ، فكان قاموسه من هذه النواحي اوفى قاموس – وقفت عليه – تحقيقاً ودقة واستيعاباً وتنسيقاً .

وسبق اني ادليت برأي عن الطريقة المثلى لوضع المعجم العربي ، في كتاب مقدمة لدرس لغة العرب ومن الخير الرجوع اليه ، فان اصول الاشتقاق والنظر الاجتهادي على العربية اصبحا في حاجة مطلقة الى التمحيص . كي نخدم عربيتنا الحاضرة وتاريخ العربية العريقة خدمة مزدوجة ، تفيد الحاضرة بما تنفخ في بقاياها من الروح وبما تمسها به من تيار الحياة ، وتفيد العربية القديمة بكشف اسرارها الغامضة وكنوزها الدفينة .

عبدالله العلايلي

قنابل

مسلاة في ثلاثة فصول - تأليف الاستاذ محمود تيمور - مقدمة للاستاذ زكي طليمات ١٩٠ صفحة – القاهرة

لا اعرف اديباً عربياً معاصراً وقف حياته وتفكيره على ادبه كالاستاذ محمود تيمور . حتى اعتدنا نحن معشر القراء ان نترقب بانقضاء كل فترة من الزمن ان يطالع علينا بمؤلف جديد . . . فيه صفات ذلك الاديب ، في وحدة تفكيره وتجديد هدفه الفني ، فلا ترى منه انحرافاً عن الجادة المرسومة ، ولا تحولا عن الغاية المنشودة !

ومن منا يجهل تيموراً القصصي ؟ الا ان نفسه الامارة بالخير ، سولت له منذ زمن غير بعيد معالجة الادب المسرحي . فاذا به في مسرحياته الجديدة ذلك الاديب الذي عرفناه في « ابو علي عامل ارتيست – وفرعون الصغير – ورجب افندي . . . » واذا بنا نراه يصطدم هنا كما اصطدم هناك ، بالمشكلة الكبرى : اللغة ! . . وهكذا حاول المسرحية بالعامية تارة ، وبالفصحى تارة اخرى ، يعيد بذلك تاريخ ادبه يوم انعكف على كتابة القصة في مطلع حياته .

وجدير بي وقد المعت الى تلك المحاولات ان اقول انه كتب للاستاذ تيمور في محاولاته تلك ، نصيب من البراعة في الاخراج ، وقسط من الدقة في درس المظاهر الاجتماعية وروعة تصويرها .

وقد كنت امني النفس بالحديث عن الادب المسرحي في العربية ، والاتيان على ذكر المشكلة التي اشرت اليها آنفاً ، لولا ضيق المجال ، واني لآمل ان اعود الى هذا الموضوع في مناسبة اخرى .

ومالي اطيل فاني اتكلم اليوم عن كتاب جديد ، او « مسلاة » كما شاء المؤلف ان يدعوها ، من ثلاثة فصول غير متساوية . لقصر الفصل الاخير بالنسبة الى الاولين ، وفيها يحاول الاستاذ تيمور ان يمثل لنا سيطرة الغريزة على بعض الناس حتى يعجز احدهم عن ضبط نفسه امام الحوادث العادية فيصور لنا احد الموسرين وقد ركبه الهم وامتطاه الخوف من احتمال وقوع غارات جوية على المدينة التي يعيش فيها ، فتراه قلقاً لا يهدأ له قرار . فيلجأ الى القرية طلباً للنجاة ، فلا يستقر به المقام فيها حتى تمتلئ نفسه وساوس وهواجس واذا به فريسة الخوف من اذى الجراثيم التفشية في القرية . . . ثم لا يقف به الامر عند هذا الحد ، بل يذهب الى عمدة القرية ويطلب اليه ارسال نفر من رجاله للمحافظة عليه وعلى اهله ، ولا يكتفي بهذا ايضاً بل يبتاع رزمة مفاتيح – من صنع اوربا – حتى تكون حاجزاً بينه وبين المغيرين . . . افلا يكفي كل ذلك ليصور لنا المؤلف خوف هذا الانسان من الموت ؟ .

الى جانب ما ذكرت نجد في المسلاة عقلية من نوع آخر ، أعني عقلية محافظة مستسلمة قانعة ، بازاء عقلية الشيخ ابي اليسر ، المضطربة ، الخائفة ، المتظاهرة بالتجدد في كل شيء . . . .

ولعلي لست بحاجة الى التذكير بأن هذه المسلاة مصرية بكل ما فيها ، باشخاصها وحوادثها ، وغايتها . . . وهي قطعة على جانب من الدقة في التصوير . وقد لا يجد القارئ مبرراً للخاتمة التي ارادها المؤلف لمسلاته سوى انه وصل الى عقدة تعذر عليه حلها . . . ففكر ولكن لم تكن قصة المعلم عويس خير حل يرجى في ذلك المقام .

احمد مكي

الجيل العربي الجديد

(تتمة المنشور في الصفحة ٤)

وحسنات للجيل القديم ، وبين وضعها بشكل يصل الى تكوين عقيدة ومثل ومفاهيم تمكن الجيل الجديد من القيام بمهمته التاريخية .

٤ ـ ولا يكون حكم الجيل الجديد حياً الا اذا كان له في فكره ونفسه مجتمع مثالي يستمد منه قيمه ، ويسأله الحكم على تفكيره وعمله . فالمجتمع الواقعي يهدد الشباب بأكبر الخطر ، اذ هو من جهة يرشحهم لمهام الابطال ، ومن جهة اخرى يرضي منهم بأبسط الاعمال . فلا بد من الترفع والتغاضي عن المقاييس الواقعية ، ومن استلهام مقاييس المهمة التاريخية ، اي المقاييس الخالدة . فالخلود ليس سير الحاضر الى المستقبل ، بل نقل المستقبل الى الحاضر . وان ابطال العروبة في الماضي المجيد لم يخلدوا لانهم قاموا بالاعمال العظيمة ، بل قاموا بالاعمال العظيمة لانهم كانوا في حياتهم يعيشون في نطاق الخلود .

٥ ــ كل ما تقدم يوصل الى هذه النتيجة : بان الجيل الجديد لن يكون الا بانفصاله عن الجيل القديم ، لا في المكان ، ولا في الزمن الاصطلاحي ، بل في الزمن النفسي والجوهر ، اي في اصل الفكرة ونظام تكونها وفي صلتها العضوية بمعتنقيها . هكذا نعتبر اصغر تلميذ قابل لان تتجسد فيه الفكرة العربية الجديدة اثمن وانفع لامة من اكبر سياسي حافل العمر بالحوادث والتجارب والخدمات . عند ظهور الاسلام ، كانت قيمة المسلم في كونه مسلماً ، لان فكرة الاسلام كفيلة برفعه الى مستواها ، وكان فساد المشرك في كونه مشركاً ، بصرف النظر عن مواهبه وفضائله ؛ لان فكرة الشرك كفيلة بخفضه الى دركها ، وبتهديم هذه الفضائل وتبديد تلك المواهب . ذلك هو الفرق بين فكرة خلاقة وفكرة عقيمة .

الانفصال هو النظرية الصحيحة في الاتحاد الصحيح . لان الاتحاد لا يكون في الكم ، بل في الجوهر والدم . واذا كان الاتحاد الكمي في حالة سلامة الجوهر قوة ، فانه يعني الضعف والفوضى عندما يكون الجوهر مفقوداً او مشوباً . في حالة الازمات الخطيرة التي تتناول جوهر الحياة ، ينشأ بين الكم والكيف تناقض وتضاد ، ويتميز العنصر الصالح بجفاوه من العناصر الاخرى ، وبخوفه ونفوره منها ، وتخويفه وتنفيره لها ، اكثر من تميزه بجمعها واجتذابها .

في وقت من الاوقات ، قبل البعثة ، كانت الامة العربية مجرد فكرة ومثال ، لا يقابلها في عالم الواقع شيء ، ولا يحققها شخص حي ؛ لذلك كانت قوية ؛ لانها لم ترض ان تتساهل وتقبل بواقع لا يلائمها ، وانتظرت حتى ابدعت واقعاً هو من فكرها ودمها واحشائها .

وفي وقت آخر ، عند البعثة ، كانت الامة العربية رجلاً واحداً ، وكان هذا الواحد كافياً ليمثلها في ذلك الحين ، والى الوف السنين .

فالامة ليست مجموعاً عددياً بل فكرة تتجسد في هذا المجموع كله او بعضه . والامم لا تنقرض بتناقص عدد افرادها ، بل بنقص الفكرة من بينهم . وليس المجموع العددي مقدساً في حد ذاته وباعتباره عدداً ، بل باعتباره مجسداً لفكرة الامة او قابلا لان يجسدها في المستقبل . لان الفكرة موجودة في حالة البذور في فرد من افراد الامة . لذلك يحق للذي تتمثل فيه ان يتكلم باسم المجموع . والزعيم في حالات ضعف الفكرة وتقلصها ليس هو الذي يتطلى بالاكثرية او الاجماع ، بل بالمعارضة والخصومة ، وليس هو الذي يستميض عن الفكرة بالعدد ، بل الذي يحول العدد الى فكرة ، وليس هو الجمع بل الموحد ، اي صاحب الفكرة الواحدة ، الذي يفرق عنها ويطرح منها كل ما يخالفها او يناقضها .

*

الجيل الجديد يؤمن بنفسه لانه يؤمن بامته الخالدة ، ويؤمن بامته الحاضرة وبقدرتها على ان تغلب انحطاطها ، لانه يؤمن بنفسه . ما دام هو قد خرج منها ، فهي قادرة ان تخرج من نفسها ؛ ما دام هو قد ارتفع فوقها ، فهي قادرة ان ترتفع فوق نفسها ، وما دام هو قد انفصل عنها ، فهي تستطيع ، بعمله وتأثيره ، ان تنفصل عن نفسها ، نفسها المنحطة الفاسدة ، لتعود : الامة العربية الخالدة . ولكن كل ذلك يشترط ان يكون ثمة جيل عربي جديد .

دمشق

ميشيل عفلق

مجمل الاحداث السياسية والحربية في شهر

بيروت ١ – احتجت الحكومة اللبنانية على تصريح لجنة الشيوخ الخارجية الاميركية ، وقدمته الى معتمد اميركا السياسي المقيم في بيروت .

دمشق -- احتجت الحكومة السورية على التصريح الذي ادلى به بعض اعضاء مجلس الشيوخ الاميركي .

كامبيرا – نزلت قوات اميركية واوسترالية في جزر الاميرالية الواقعة جنوبي جزيرة « غوام » على ١٣٠٠ من الفيلبين وقد تمت عملية النزول تحت حماية الطيران والاسطول .

واشنطن ٢ – وطد الحلفاء اقدامهم في جزيرة لوس نيكروس احدى جزر ادميرلتي على بعد ٢٥٠ ميلًا الى الشمال من نيوغينيا .

موسكو ٣ –احتلت القوات الروسية مدينة نارفا من الجنوب .

لندن – اخفق الهجوم الالماني الثالث على المعبر الحليف في ايطاليا وقد رد الالمان الى مركزهم الاول .

لندن ٥ – جاء في برقية من واشنطن ان الجنرال مارشال رئيس هيئة اركان حرب الجيش الاميركي رغب الى لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ ان تصرف النظر عن الاقتراحات التي اعدتها لحل المشكلة الفلسطينية ، وان تمتنع عن معارضة « الكتاب الابيض » البريطاني حرصاً على العلاقات الانكليزية – الاميركية .

لندن ٧ – نشطت القاذفات الاميركية والبريطانية نشاطاً ملحوظاً فقامت بخمسمائة عمليه فوق منطقتي روما والبندقية ، وهاجمت طائرات الليبراتور ميناء طولون في جنوبي فرنسا .

موسكو ٨ – احتلت القوات السوفياتية قصبة منطقة تارنوبول .

لندن ٩ – قامت قوة كبيرة من القاذفات الاميركية الثقيلة تحرسها المقاتلات الاميركية البريطانية بغارة جديدة على برلين في وضح النهار .

بيروت – وصل الى بيروت الجنرال بينه مندوب فرنسا في سوريا ولبنان قادماً من الجزائر .

موسكو ١٠ – استطاعت القوات الروسية بعد هجوم استمر اربعة ايام ان تعبر نهر انغوليس وتخترق الخطوط الحصينة التي اقامها الالمان على ضفته الغربية .

موسكو – واصل الجيش الروسي الذي يعمل في الجبهة الاوكرانية ضغطه فتمكن من احتلال مدينة ستاروقسطنطينوف المعقل الالماني الهام .

الجزائر ١١ – لفظت المحكمة العسكرية بالجزائر حكمها بالاعدام على بيشو وزير داخلية فرنسا السابق ومصادر ممتلكاته لحساب الامة .

واشنطون رفضت حكومة ايرلندا الجنوبية اخراج ممثلي المحور من عاصمتها نزولا على طلب الحكومة الاميركية .

برن -- اعترف البلاغ الالماني الاخير بالجلاء عن « اومان » التي احتلها الروس .

نيودلهي ١٣ – استولى جنود الحلفاء في بورما على مدينة منغوان وهي مدينة كبيرة في شمال بورما تبعد مئة ميل من حدود الهند ، وسقطت مدينة والوبون القريبة منها في ايديهم .

بيروت ١٤ – ارسل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود لفخامة رئيس الجمهورية اللبنانية برقية مودة وتأييد، ويدعو فيها رئيس الوزارة اللبنانية لزيارته في الرياض تعزيزاً لروابط المودة بين لبنان والحجاز ، وقد اجاب رئيس الجمهورية اللبنانية ببرقية شكر فيها جلالة الملك عبد العزيز وذكر له فيها ان رئيس الوزارة سيتشرف بزيارة جلالته قريباً .

لندن ١٦ – وافق البرلمان الفنلندي على سياسة حكومته ورفض الشروط التي تقدم بها الروس بشأن الصلح رغم التعديل الذي ادخل عليها اخيراً .

لندن – بدأت قوات الحلفاء بمهاجمة كاسينو بعد الغارة الكاسحة التي شنتها عليها امس الطائرات الحليفة .

لندن ١٧ – بلغت قوات الروس المتقدمة ضفة الدنستر قرب مدينة موهيليف كرودونسكي .

موسكو ١٩ – احتلت قوات الروس التي بلغت نهر الدنيستر مدينة يامبول ومئة محلة اخرى . وانتزعت هذه القوات نفسها مدينة زمارنكا وكانت زمارنكا احدى قواعد الالمان الرئيسية على مجرى نهر بوغ الاعلى ، واحتلت قوات الجنرال كونيف على الضفة الغربية من نهر الدنيستر اربعين مدينة وقرية ، منها مدينة سوروكي الهامة . وباحتلال الروس لسوروكي يصبحون على ثمانين كيلومتراً فقط من نهر بروت حيث تبدأ حدود رومانيا لسنة ١٩٤١ .

موسكو ٢٠ – احتلت قوات الجبهة الاوكرانية الاولى مدينة كريمنس . وقد جلا الالمان عن قسم من مدينة كونيل العقدة الهامة الواقعة على ستين كيلومتراً فقط من النقطة التي بدأ منها الهجوم الالماني على روسيا .

لندن – يقول بلاغ صدر من مقر القيادة العليا في الباسيفيك ان القوات الاميركية اتمت احتلالها لجزر الاميرالية . وقد سقطت مدينة لوريننان بعد ان قضي على ٧٥ نقطة دفاعية يابانية .

الجزائر – اعدم عند الفجر رمياً بالرصاص المسيو بيشو وزير داخلية فيشي سابقاً في زاوية باي حسين بالقرب من مدينة الجزائر .

ستوكهلم ٢١ – قدمت السلطات الالمانية بعض المطالب لحكومة المجر تتعلق بتنظيم الجيش المجري واعلان التعبئة العامة في المجر وغير ذلك من المطالب ولما ترددت الحكومة المجرية في الخضوع لهذه المطالب ، احتلت القوات الالمانية المصفحة هنغاريا وقد تم الاحتلال في ١٧ ساعة .

بغداد ٢٢ – وصل الوفد السوري الى بغداد عائداً من الرياض . وقد جرت اتصالات بين رئيس الحكومة العراقية السيد نوري باشا السعيد ، ورئيس الوفد السيد جميل مردم بك .

نيودلهي ٢٣ – ابلغت القيادة المتحالفة في الهند ان اليابانيين واصلوا هجومهم في وادي شندوين متجهين غرباً عبر مرتفعات سومرا غير المطروقة . وقد تمكن العدو من اجتياز الحدود الهندية في موضعين .

القدس ٢٤ – فرض نظام منع التجول في مدن فلسطين الرئيسية اثنتي عشرة ساعة يومياً . وقد جاء المنع عقب القاء بعض القنابل من اليهود .

لندن ٢٥ – احتلت القوات الروسية مدينة بروسكوروف .

لندن ٢٩ – سقطت مدينة نيقولايف في ايدي القوات الروسية .